أحمد ساحي
أستاذ باحث في التاريخ
زواوة.

الأعلام من زواوة

إيقاوان

1

ساحي


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تراجمنا هي لخمس شخصيات رئيسية في تراث زواوة، منها العائدة لعصر إبن خلدون، والعائدة للقرن السابع عشر، عهد إمارة كوكو.

فأحمد بن إدريس يمثل تيارا علميا ودينيا، نزيف علماء بجاية، ومفتييها- الذين رفضوا المدينة وهجروا ملتقى الحضارات لكامل المتوسط يومئذ، بجاية الحفصية التي تعتبر بحق عاصمة المغرب الأوسط.و هو الشخصية الأولى.

إهتمامنا به كرحالة مخبر، سائح، لجأ إلى جبال زواوة بعد أن دانت له المدينة والحضارة الفاتنة والمفتونة، وهو شيخ الفتيا. ويكمن سر إختيارنا للرجل في كونه عينة جماعة كبيرة من العلماء والقضاة ومن شخصيات ذات سلطان وأخرى ذات تقوى وورع، فضلت الطريق الذي مهده أبومدين شعيب (البجائي)، ولكنها تظاهرة رشيدة ومعارضة حكيمة ثقافيا لمبدإ السلطان مهما كان الإغراء ومثلهم معاصرهم إبن خلدون الذي لاذ بقلعة بني سلامة (فراندة).

وهكذا أغنت بهجرتها مدرسة بجاية الصوفية بمختلف فروعها الطرقية، فيما بعد، بأعالي البلاد الداخلية وسهولها.

وتجمع تراجمنا لهؤلاء بين المسح الثقافي، ميدانيا، والديني وبين إعادة وصل وبناء الفروع على الأصول، لبعض شرائح السكان بزواوة، تثري جهدنا هذا قيم وذاكرة مضطربة لكنها جد هامة لتراث متراكم عبر العصور من عهد الموحدين وإمامهم إلى عهد السلطان.تشع خلالها عشرات الأسماء المنحدرة من الأصول المختلفة لاسيما منها الأصل الإدريسي إيتنوغرافيا، وهي ترتبط من قريب أو

بعيد ببلاد زواوة وبجاية وجزائر بني مزغنة... مابين كتامة وصنهاجة... كما عرف بحدودها إبن خلدون.

وتشرف على التاريخ الحديث بزواوة شخصية المرابط منصور الجنادي المنيعي... ببعد عجيب. عانى كثيرا من نوايا السكوت، وعدم الإهتمام، وانعدام التحليل ورصد أغوار مضامن الكلمة في الرواية، وليس الدراسة لأن هذه لم تحدث أبدا بعيدا عن إشارات مقتضبة، موجهة للفرنسيين!

إنه يملأ بأهلية ومواقف صريحة وحادة شخصية المعارضة والتحدي والتمرد على سلطان كوكو- كامل زواوة- حينئذ، عمر بن القاضي المتوفى 1618م.

موقف يكشف عن الصراعات العنيفة الخامدة كالنار تحت الرماد، وهو ماتحول نفسانيا وذهنيا إلى اللاّقيم واللاّفعالية عند بن نبي.

صراع بين السلطتين الدنيوية والدينية. أو بين ولي الأمر كنفوذ مكين (قاهر) في عمق الرعية وبين السلطة الروحية للمرابطين والطرقية.! والسؤال ظل على الدوام مطروحا... فمن هو السلطان.؟ولمن الحاكمية؟.. وفي مجتمعاتنا كانت السلطة المنتصرة هي الروحية. منذ عهود وعصور لم تخضع الرعية في زواوة وخارجها تلقائيا وباختيارها لغيرهم.! وهو الشخصية الثانية...

وتمتاز الشخصية الثالثة العائدة للقرن 17م بتخصص تربوي دقيق، علما وبرنامجا ومعهدا، كما تمثل أولى محاولة في مسيرة التنظير، بيداغوجية التسيير، كأول قانون داخلي يتحكم في حياة الطالب والشيخ داخل المعمرة كمؤسسة تعليم وتربية، وخارجها... كما يمثل بعثا لمجالس الموحدين العريقة كتجربة قيادية- جماعية وكتسيير ذاتي فيما بعد!.. حتى إعتبر الدارسون لهذه المفخرة من التراث الحضاري والنظم أنه (عبارة عن جمهورية قائمة بديمو قراطيتها) فأحياء المجالس الرباعية والخماسية والعشرية والأربعينية، تعد دعما

للأصالة على التقليد الأعمى، وجهدا في سبيل تعزيز الذات! مايعوز الجماعات الإسلامية في العصور المتلاحقة.

مبادرة لم تسعف لسوء الحظ بالإستمرارية والإثراء والإصلاح وملاءمة القانون للتطورات والأعصر اللاحقة، وهي معضلة المسلمين ومأساة الحضارة الشرقية العربية.. قضية التواصل بين السلف والخلف... الشعار التحذيري، أكثر مماهو مذهب ومنطق ومبدأ..!

أما الشخصية الرابعة فقد أمدتنا بمادة ثرية وأمثلة حية عن عصر تلألأت خلاله شخصية زواوة تجاه الحكم التركي، ومملكة آل بن القاضي... فأبو القاسم بن ابراهيم خليفة سيدي علي والطالب بكوكو (الرمز). شخصية تبرز جانب العدالة الواسع الإنتشار في أعماق القرى والجماعات الريفية، بعد المدينة، فهي إذن من هذه الناحية تخلد تراثا ثريا موثوقا عن (إدارة الورق)للعدالة، بالقاضي وكاتبه وشهوده وعدوله وملفاته ومحاضره وشرائعه المستمدة من الكتاب والسنة وسيدي خليل... إدارة غير مترفعة، تنتقل إلى الرعية، وتتكون من ممثلي الرعية، ويتم الفصل في قضاياها بتا وتسوية وتنفيذا بواسطة الرعية... إنها الثورة الثقافية في سبيل إحلال العدالة! وأبو القاسم يزكي إختيارنا له ماتمتع به وأسرته من تواصل وتسلسل الحلقات من القرن 17 حتى 19، تحكمت الأسرة في دواليب القضاء والتنفيذ برئاسة مجلس القضاء حينا ورئاسة مجلس المصالحة أخرى، وبالعناية بمكتبة توثيقية لمحاضر العدالة والقضايا التي بت فيها بما فيها محاضر تأدية اليمين الشرعي في مقام الولي سيدي علي بن طالب (1796) وهو إزاء الحكم التركي يمثل استمرارية أصيلة لشخصية زواوة المستقلة صاحب ولاية وأمان باعتراف الوثائق الإدارية للعهد...

فقضاء أبي القاسم بن إبراهيم لم يكن مرافعات وملفات وسلاسل جلسات تصب كلها في قعر مظلم (رفوف الإهمال) لدى هيآت التنفيذ، بل إنه القضاء

الشرعي، مداولة وبتا وفصلا بلا تأجيل في مجلس قضاء يبت ومجلس مصالحة ينفذ أمام الملإ...

وتعزز الشخصية الخامسة المترجم لها، وهي لأبي سعيد محمد السعيد بن علي الشريف... جانب الإهتمام العلمي والبحث في علم الميقات والفلك والتنجيم بكل التأثيرات التي أحدثها في مجال المعارف الفلاحية وحساب الزمن (الرزنامة) وقياس أوقات الصلاة. وماحاول أبو سعيد من خلال كتابه الإستبصار تحقيقه من المصطلح والتعاريف العلمية وحساب الجمل والحساب الغباري وغيرهما.

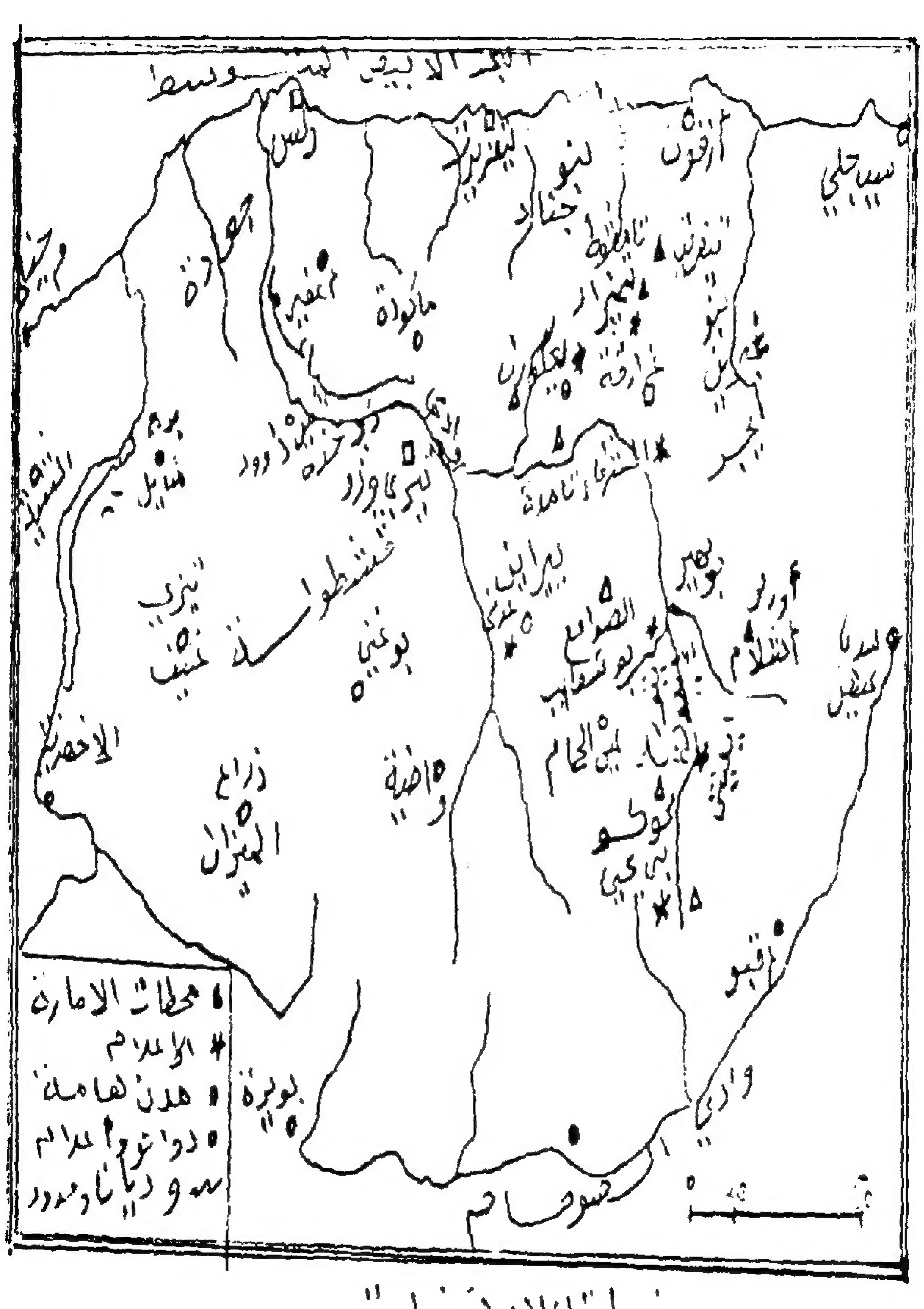
وتعتبر الترجمة نفضا للغبار على حقبة تاريخ الأسرة منذ أواخر العهد العثماني بل منذ 1152هـ لأن الذاكرة الماثلة تعرف فقط شخصية العائلة الحكومية خلال العهد الفرنسي، وهذا خطأ.. ولأن روايات خبيثة لسوء الحظ تحوم حول التشكيك، من غير توثيق ولادليل، في أصول الشريف... وأتينا في الرد شجرة للأسرة، وكتابا مخطوطا!

حافزنا ورجاؤنا وراء دراسة هذه التراجمة ما تدعمه وثائق بعضها مشاع، تطلب فقط إعادة القراءة والبعض الآخر مبتذل، فرض عليه الحضر والإخفاء، حال العذراء المحتجبة، حتى غدا في كثير من المحيطات مادة للتبرك والطقوس، يستحيل العودة إليها بدون الذبائح والأدعية والكرامات - شجرات العائلة-!

أما البعض الآخر من الوثائق فهي المصادر المخطوطة- الخاصة- تداول عليها النساخ، وتعددت النسخ، ولكن المكسب من كل هذه الوثائق المصادر هو المنطلقات والركائز التي دعمت سعينا بجرأة، وزكت دراستنا، كما تعززت بجملة صلات وإتصلات بذوي الإهتمام والعلم من أمجال الأسر نفسها، ونخص

منهم بالذكر الصديق على إبراهيمي مدير الثانوية والسيد عليلي حسن (اليجري) وأسرة بن عميرة، الصادق ومحمد أرزقي وعبد العزيز.. ولن ننسى في كلمتنا المتواضعة هذه تشجيع وإرشاد الدكتور بلحِميسي لنا، وهو أول من أشار علينا بموضوع التراجمة، وكذلك فضيلة الأستاذ البوطي ثاني مشيرفي تأنيب لطيف كظله الخفيف، وشكرنا لهما وللجميع عرفان، وإقدام على النشر إن شاء الله وهو الموفق...

... أحمد ساحي



خريطة الاعلام من زواوة

أحمد بن إدريس

بين

بجاية وإيلولة 760 هـ 1358م

ترجمة أحمد ابن إدريس بقدر من جهد متواضع، نهدف بها الإسهام في نفض الغبار على تراث زواوة الإسلامي، والتعريف بالشخصيات الأقطاب، وبالمعاهد المؤسسة بها، بعد العصر البجائي، والتي عدّها ابن زكري بسبعين.(1)

ودعما للنوايا الخالصة في خدمة الثقافة الأصيلة، بكل عناصرها المحلية والوطنية، والحضارية بعيدا عن العقد والضغوط المفتعلة، وعملا بمبدإ الترجمة للشخص هي بعث للعصر بحوادثه ونمط حياته ومفاهيم القوم فيه، ولأن التراث كائن حي لايموت..!

فأحمد ابن إدريس أحد رواد التراث العربي الإسلامي بزواوة، المتداول في كل مؤسساتها (الزوايا والمعمرات والمكاتب).! بالتعبير القبائلي العربي من الحروف الهجائية إلى المواريث وعلم الفلك والتنجيم (الميقاتي) والشعر والأسطورة والحكمة والأمثال، التي لا يمكن أن تتجرّد من أرضيتها الحضارية والتاريخية.

وإحقاقا للحق نعترف بأن جهودنا هذه تبقى أحوج ماتكون إلى دعم حتى تسمو إلى مستوى الرد الأنسب، على ثقافة النكران والنسيان واللاّتفاعل والإستخفاف.

إنها محاولة ثقافية لترقية التراث إلى مادة للتاريخ، والدراسات الإجتماعية، وليس الجماعية..! فالتراث أغنى مورد ومصدر للمؤرخ وعالم الإجتماع، وفي مجالنا هذا نقدم ترجمة جديدة لكبير بجاية ومفتيها، شيخ ابن خلدون، دفين ايلولة أو مالو... أحمد بن إدريس بن محمد بن عبد الله.

أحمد بن إدريس في التراث الأيلولي

يرغمنا سكوت التاريخ المكتوب على كل مايتصل بالنشأة الأولى لأحمد بن إدريس، على طرق باب التراث الشعبي المكمل للنزر القليل من الزاد المكتوب، دون فاصل بين المترجم له وظاهرة الزاوية، قبل عهده وبعده...

وتنطلق ترجمتنا له من دعامتين إثنتين:

أولاهما: أنه عاش في قرية (اڤوسيم) أكوسيم من ايكسيمن الساقية الحمراء وكسيمة الأغواط حسب الحفناوي.(2)

أڤوسيم أيلولة أومالو، لدى شيخ القرية وجدها المرابط الصالح (أبوعلي الكوسيمي)...

وتمثل الدعامة الثانية: نصا للغبريني يضبط المكان والزمان والحدث، ويقدم القرائن المادية. حاجة المؤرخ، وتزكية عمل التراث والآثار.(3)

وفيه يذكر دراسته الأولى على أبي الحسن علي بن محمد اليتورغي في (المكتب) وحدد ذلك فيما بين 644 هـ 651 هـ - السن الأولى وهذا عن الزمان!

أما عن المكان فيذكر أنه درس على شيخه بالمكتب، وهو أولى مؤسسة بزواوة (معمرة) حيث ضريح أحمد بن عبد الله بوادي (بوعيدل) وضبط ذلك بالتخصيص (بموضع سكناه منها) أي بني يتورغ.. موضع يقع بين ايليتن وبتورغ وايلولة... حيث تلتقي الروافد الأساسية الثلاث لسباعو وهي وادي الجمعة ووادي حناية · ووادي تيزيت، عند ايغزر يخداشن وتغزوت.

يتواتر في الرواية الشعبية بهذه الربوع أن الموقع كان مقاما لأبي الحسن علي ولأخيه أبي علي الكوسيمي، وبه تتلمذا على أحمد بن عبد الله، قبل 1255م.

ومن هذا المعقل الأصيل إنتقل الأول إلى يتورغ ليؤسس زاوية (سيد علي تغالاط) قبل 1284م، واستقر الثاني أخوه بايلولة أومالو، في قرية أكوسيم، ذات الجنان والحقوق على الرحى المائية بحرم أحمد بن عبد الله بتاغزوت،

يثري ترجمتنا الغبريني بذكر وفاة شيخه الأول قبل 683 هـ ويضيف أن ولده بكوا لفراقه، ولكنه طمأنهم، وأوصى لهم ماكان بركة عليهم بعد وفاته...

ولاداعي لذكر أن أبا الحسن علي في التراث مات كلالة ولم يخلف ولدا ولاأنثى، وإنما يقوم على زاويته (على تغالاط) أنصار من قرية تيزي فقط، ومنهم عائلات لاتدعي القرابة الدموية مع شيخ الغبريني.. وعلى العكس منه فأبو علي الكوسمي خلف ذرية ولدانا وإناثا...وفي هذا يكمن الدليل على أن شيخ الغبريني هو على الكوسمي وليس أخاه...

الروابط الأسرية

عن هذه الرابطة بين أحمد بن إدريس والأخوين إبني محمد بن عبد الله تحتفظ قرية (أقوسيم) بتراث وقرائن مادية، تثبت معاصرة إدريس (وإدريس) في التراث، وآل أحمد المترجم له، للأخوين في قريتهما، بعد عهد الدراسة في المكتب المذكور.

ومازال عين الماء بالقرية تسمى (عين وإدريس) إلى جانب عين جد القرية، تقعان مباشرة ومجاورة مع الجامع ومعمرة ذات مرافق متعددة، يرتادها طالبوا العلم من كامل الربوع في قديم عهدها، وحتما قبل إندثار قرية (تيزروتين) وخرابها! وحسب التسلسل الوارد في النسب العالي يكون الثلاثة إخوة:

-أبو الحسن علي بن محمد اليتورغي، مؤسس على تغالاط قبل 683 هـ

- أبو علي الكوسيمي بن محمد لزم القرية وبها معمرة شهيرة.

- إدريس بن محمد بن عبد الله، رحل إلى بجاية، وبها عرف حسب الكثير من المصادر في مقدمتهم الغبريني...ووثيقة حصلنا عليها من جامع عبد الله بوجعفر بأزفون...

فشجرة نسبهم هي: أحمد بن إدريس بن محمد بن عبد الله بن عيسى بن موسى بن إبراهيم بن خالد بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر...(4)

ولحاجة الشجرة إلى المقارنة والإثراء بمختلف مصادر الأنساب خصصنا اثراء للطروحات والروايات الشائعة في مواضيعها.

أما إدريس فهو الذي كناه الغبريني بالفقيه الجليل (أبي عبد الله الإدريس-الأريسي) ويكنى بالقبائلية فقط (وادريس) والواو للنسبة، وهو نفسه إدريس بن محمد بن عبد الله، المعروف الأثر والعنصر في التراث بايلولة، وبموطن الأدارسة الأوائل (بوعيدل وايخذاشن) والعربي الخداشي حسب صاحب التبصيرة في علم القراءات أحد أحفاده(5).

وهنا نشير إلى كنية الواجبلي أو الوانغيلي الواردة في شجرة النور الزكية. (6) والوانغيلي أسرة قضاء وإفتاء بفاس منهم القاضي الونغيلي 799 هـ.

كما في الجزائر الثقافي عند ذكر أحمد بن إدريس، وهو لقب لنفس الأسرة العلمية، و(درة الحجال (ج 3).

وفاس كانت عاصمة الأدارسة، وهم مؤسسوها، لما يزيد على 260 سنة، ومنهم محمد الواجبيلي من بني واجل قرب فاس، شيخ العلامة التيجاني قبل 1767.

وجدير بالتنبيه إلى أن هناك إدريسي آخر، تفاديا للخلط، وهو أيضا أبو العباس أحمد بن إدريس الإدريسي الشريف الحسني ولد قرب فاس بقرية ميسور وتوفي باليمن بعد سياحة عبر أقطار العالم الإسلامي آسيا وإفريقيا توفي 1819م وهو مقدم الطريقة الخلوتية الشاذلية ومن أقطابها...

أحمد بن إدريس بين أيلولة وبجاية

وعلينا أن نستدر كتب الأنساب والعلوم الدينية وغيرها حتى نوفر مواد إعادة بناء حياة العالم الجليل.

إبن إدريس عندابن خلدون:

- مما يذكره في صميم إهتمامنا، من المناسبات التي جمعته مع أحمد بن إدريس، مازلنا نتحدث بهذا البلد (مصر) وبعد مداه في العمران وإتساع الأحوال.. ولقد إختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا (...) وأصحابنا، حاجهم وتاجرهم في الحديث عنه «سألت شيخنا أبا العباس إبن إدريس: كيف هذه القاهرة؟ كبير العلماء ببجاية-

فقال: كأنما انطلق أهله من السحاب، يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب.(7)

- بهذه الدقة يغدق علينا الرجل بالقطر القيم، ويسجل: وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس، الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي بمجلس السلطان أبي عينان، منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر، وتأديته رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة 1355م فسألته عن القاهرة.

هكذا بلا فاصل في التعبير، كما يوضح أن اللقاء كان صحبة شيخه ابن إدريس، وبمحضره كحاج أو متأهب للحج، وهذا ماينير وجهتنا عبر دروب حياة المفتي، ونتأكد من إقامته، ومن معرفته العميقة للقاهرة دارسا ومدرسا بها، ليحكم على القطر وعلى أهله أنهم من السحاب أمنين..

ويصرح بأن ابن إدريس شيخه(8).

أسرة ابن إدريس في التراث:

حول الحياة الشخصية للمترجم له فالمتواتر في التراث أنه عاش ومات كلالة، وقيل أنه لم يتزوج شأن الكثير من الأولياء المتصوفة، وفي الرواية المحلية بأيلولة الكثير من الكرامات والنسك له.

وحول أسرته يورد الغبريني في عنوانه ترجمة لأصولهم في بجاية، ويذكر منهم (أبو عبد الله/ محمد بن أحمد الإدريسي) المعروف بالجزائري حفيد الفقيه الجليل (أبي عبد الله) شيخ شيخنا أبي عبد الله التميمي وأصحابه، وشيخ كتبة الديوان ببجاية قبل 1284م. لأنه ذكر وفاته بقوله (رحمه الله) ويضيف في توسع.. وهو صاحب الشعر الرائع:

يامن على جوده المعهود اتكل

ويامولاي إن ضاقت بي الحيل

غرقت في بحر أثامي فخذ بيدي

وامنن بعفو فإني خائف وجل

- لايحتمل البيتان أي تعليقٌ قصد توضيح المحيط الذي ترعرع فيه المفتي ابن إدريس، وعنوان الغبريني أهم مصدر يدلنا على تواجدالأدارسة في بجاية خلال القرن 7 هـ/ 13 م/ أي فترة زواوة والإقامة بأيلولة كما تقدم..(9)

قدر المفتي وابن خلدون وأبي الحسن المريني:

لدى ابن خلدون المزيد من أسرار حياة شيخه المزدانة بالأقدار شأن أقدار بجاية والمغرب كله، وهو يورد غزو المريني لبجاية والوقائع المتلاحقة بها وبتونس فيقول:

«وكان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن المريني، عندما ملك إفريقية عام 1346م جماعة من أهل العلم، كان يلزمهم شهود مجلسه، ويتحمل بمكانهم فيه، فمنهم شيوخي إمام المغرب أبي العباس الزواوي.. »

لم يذكر ابن إدريس هنا، غير أنه يواصل «وفي فاتح 749 هـ 1348م.

كانت واقعة القيروان على السلطان المريني، وأردفها الطاعون الذي حصد أرواحا يصعب حصرها. وثار أهل تونس بعد إنقلاب جنود جزائر بني مزغنة وبني عبد الواد (الرهائن) يقود الجميع إبن تافراكين. ولم يعد من خلاص لأبي الحسن سوى ركوب البحر من سوسة.. لم يذكر ابن خلدون من بين ضحايا تونس والأسطول شيخه أبا العباس الزواوي أو أحمد بن إدريس. مع أنه أدرج في عبره قصيدة الرحوي بهذا المجال، ضحايا الطاعون والعاصفة القاضية على أسطول المريني الشهير.(10)

تلامذة ابن إدريس وتآليفه.

تتفق أغلب المصادر على عبد الرحمن الرغليسي المتوفي 1384م وابن زاغو التلمساني والشرف الرهوني وعبد الرحمن إبن خلدون من تلامذته. (11)

وفي هذا المجال يتعين الإشارة إلى مايروي حول دراسة محمد الهواري الوهراني على أحمد إبن إدريس، ماردده الكثيرون، فالهواري توفي عام 843 هـ 1439م وإبن إدريس فقدنا أخباره بعد 1358 وحسب إبن فرحون توفي بعد 760 هـ أي عهد أيلولة..

وحتى لو سلمنا بإفتراض أن يعمر إبن إدريس إلى مابعد الستين، رغم أنه عاش ببجاية وربما زواوة مدة 14 سنة، حسب التراجم العديدة مثل البستان (12)

- ونحن نعتقد أن الهواري دفين وهران، درس في معهد إبن إدريس وليس على الشيخ نفسه، والثغرات كثيرة من هذا الزلق ونعتقد أن الهواري والرهوني معالم يأخذا عن إبن إدريس لأنهما توفيا بعد 840 هـ (13)

وكل التراجم وسير العلماء والأولياء تدفع بنا إلى رفض المقولة التي تجمع بين أحمد إبن إدريس وعبد الرحمن اليلولي وسيدي منصور الجنادي في (تيزيبرت) وفي زمن واحد، كما ذكر السيد بوليفة وتبعه غيره. (14)

- ذلك أن الترجمة المعتمدة لإبن إدريس تحوم حول كونه من شيوخ إبن خلدون، وهو عمدتنا، وفصل الخطاب.. في حين يعود عصر كل من عبد الرحمن الأيلولي وسيدي منصور الجنادي إلى القرن 17م.

وبعد هذه الإشارة هل يعقل أن يجتمع الثلاثة في زمن واحد ومكان واحد.. والفارق الزماني بين عهودهم أكثر من 3 قرون (1358- 1693) ولا نمر دون الإشادة لذي الفضل في إثراء ترجمة الأيلولي ومعهده وإختصاصه محمد أبو القاسم البوجليلي، صاحب التبصيرة في علم القراءات.

- تكمن مكانة الشيخ المترجم له وفي كونه رجل علم وتصوف وقلم وتربية وله جهد وافر في التأليف من تعاليق على البيوع، وشرح على إبن الحاجب.

- إبن الحاجب - الذي تلقاه عن شيخه أبي علي ناصر الدين منصور الزواوي المشدالي، الذي نقله من المشرق بعد مقام به 20 عاما، لقي خلاله العز بن عبد السلام، وبعد مقامه ببجاية وافاه الأجل عام 731 هـ 1330 م (15)

- وتدريس أحمد إبن إدريس لإبن الحاجب وتصورات في التصرف في بجاية وترنس وزوارة بمعهده الشهير لدى أيلولة.. مأثور مشهود له في المصادر والتراث، كما لإبن إدريس مناقب ذكر بعضها الورتلاني، وله أداب في الطريقة وآراء صريحة حول مفاهيم (الخرقة) مايؤكد مرتبة التصوف ومرتبة الطريقة والحقيقة، والخلوة التي إندرجت عليها زاويته في عهده وماتزال (16)

تراث إبن إدريس يحتاج إلى قراءة متجددة، من ذلك ماروي عنه أنه تلى الفاتحة على أذن مصاب فشفاه الله... وحاول تلميذ له نفس التلاوة وخاب. فعاد شيخه سائلا مندهشا كيف قرأ نفس ماقرأه شيخه ولم يوفق توفيقه.. فكان جواب إبن إدريس هذه الفاتحة وأين قلب ابن إدريس؟.. وقرابة 500 سنة حمل هذا محمل الكرامات فقط(17)

لكن التربية الحديثة تستمد من هذا الدرس العبرة وأن الرسالة التي لا تنبع من القلب تضيع هدرا، ولاشيء مستحيل التحقيق، حتى ولو كان شفاء مس بالجنون.. عندما تتفجر الإرادة الصادقة من أعماق القلوب والأرواح..

إبن إدريس وحوادث بجاية وتونس:

كثيرة هي المراجع التي تضم بين دفاتها، مابين مقاطع شحيحة وذكر عابر، حول أحمد بن إدريس، أو حول معهده، لاسيما منها كتب الدين والتصوف والأنساب والرحلات والتاريخ ويستوي في ذلك ماكتب الأقدمون والمحدثون وهو الواقع الذي حفزنا إلى نسج هذه المساهمة، مدعمة بالتراث والقرائن المادية.

- ولولاها لفقدنا الكثير من جوانب حياة شيخنا ونشأته وترقيه على سلم العلم والفتوى وسر إختياره لزواوة ملاذ أمن وسلام أخير، في ربوع أيلولة أو مالو.

- لقد أمدنا إبن خلدون بعشرية من حياة شيخه في بجاية وتونس ومصر، لاسيما منها الفترة البجائية الرعناء، والزاخرة بجلائل الأعمال والأحداث. والتي هي في أبعد مدلولاتها صفحة رعناء من تاريخ الصراع والتطاحن (المغاربي) بين بني مرين وبني زيان وبني حفص.. صراع ملكي الظاهر عشائري قبلي الطابع والمضمون.!

صراع بلغ أشده في عهد أبي الحسن المريني، على أثر سقوط تلمسان سنة 737 هـ 1336م ولم تنفرج أزمته بتمرد إبنه أبي عينان وموت الأب طريدا مشردا، يتعقب قدره لدى هنتاته بجبل المصادمة سنة 752 هـ.(18)

إنها الحقبة الثرية بمعالم من شخصية الشيخ المؤثر، مفتي الإسلام ببجاية من ناحية، ومن ناحية أخرى مثل عنفوان الروابط والعلاقات والوقائع مع بلاد القبائل وبجاية.

أهمها تلك العلاقات الديبلوماسية بين ملكة بني يبراتن، ومن آل عبد الصمد

(حاليا في الأوراس).. عرفها إبن خلدون (شمسي) ومابين السلطان المريني الفاتح سنة 747 هـ وهذا من المسكوت عنه تاريخيا(...) شأن الكثير من الحوادث المصيرية. (19)

- تناوله إبن خلدون بجديته المعهودة، في خضم الأحداث المتلاحقة، مثل مافعل إبن مرزوق في المسند الصحيح، من الزاوية الرسمية، والمقري في نفح الطيب من بعدهما.

أول إتصال لصاحب العبر بالسلطان المريني عند غزوه تونس وماترتب عنه من ويلات ومثالب، آخرها اجهاز عاصفة بحرية على ماتبقى من جيش المريني فيما بين (دلس وبجاية). حيث يغرق أغلب 400 عالم، الممثلين للمجلس العلمي السلطاني عام 750 هـ وينجو السلطان في بعض سفن أسطوله إلى جزائر بني مزغنة. (20)

ليس قدرا وقفا على المريني، بل شمل العلماء الرهائن والأسرى، ولم ينج منه حتى أمثال أحمد بن إدريس كبير بجاية حينئذ والذي لا نملك دليلا على أنه من المبحرين على الأسطول، ولالنفي ذلك.

ومن جملة الوقائع المعهودة أن يصطحب الغازي المنتصر رهائن من خيرة العلماء والأعيان إتقاء لأي رد فعل ودرأ لكل تمرد متوقع.

ومن الأرجح أن يكون إبن إدريس من بين الرهائن، المتعاقدين مع مجلسه العلمي وهو شيخ الفيتا، ويضطرنا لهذا التوضيح سكوت الأخباري إبن خلدون وعكسه يصرح إبن مرزوق بأن علماء بجاية هم الذين تقدموا أمام السلطان بمفاتيحها وهو معسكر بسهل (أمسيون). معلنين دخولهم تحت طاعته، وبيعتهم إياه على الفتح وهذا عمدتنا في هذه الواقعة لأن مصطلح العلماء يعني المجلس العلمي الذي يرأسه المفتي وكبيرهم.(21)

أما تلميذه فلم يذكره من جملة علماء الأسطول، ولم يشر بالضبط إلى دراسته عليه إلا ضمنيا،، (شيخنا) ويرجح أنه أخذ عنه في تونس ومصر قبل بجاية ونقل عنه معلومات لم يتناولها غيره قبله، من غير التراث ببجاية وزواوة، الذي طغى على طروحاته طابع الكرامات لولا مايسعف به المؤرخ من (الإسم والظرف والحدث والتاريخ). بتلك الإشارات فقط نستطيع تشكيل حياة المترجم له في الفترة الممتدة بين 1346و 1358م المشحونة بالحوادث ذات الصلة المباشرة بشيخنا وبتلميذه..

إستباحة دار الفتوى:

لم تكن حوادث بجاية قصيرة العمر فقد توالت هزاتها وثوراتها منذ 747 هـ عكس ماذهب إليه إبن مرزوق من تسليم المدينة للمريني. فقد ثار البجائيون صنهاجة منهم والأعلاج بالخصوص ثم تبعهم الغوغاء حسب تعبير إبن خلدون(22)

كان الصنهاجيون أهل شوكة بها، عندما أولى أبو عنان عمر بن علي الوطاسي، من أصل يوسف إبن تاشفين (بني وطاس بيتورغ)، ثورات عاصرها إبن إدريس وعاينها، كما إكتوى بنيران بعضها، وخصوصا تلك التي تسبب فيها موقف الأمير الحفصي أبي عبد الله عند تخليه على بجاية للسلطان أبي عينان، كتابيا وبإشهاد كافة الأعيان والعلماء مقابل إمارة (وجدة) كتعويض إقترحه عليه المريني.

حادثة كهذه ماكانت لتمر دون رد فعل في مستواها إذ نقم البجائيون وأشتد تذمرهم من موقف الأمير، فثاروا على عامل المريني عمر بن علي الوطاسي عام 1352م يقود جموعهم فارح مولى إبن سيد الناس -عريف صنهاجة وشيخها- فطعن العامل في داره!

أحمد بن إدريس وإبن خلدون في بجاية:

إستمرت الإضطرابات بين الموالين لقسنطينة والمناصرين للمريني وأنصار الشخصية البجائية (إزاء قسنطينة وتونس وبني مرين وبني زيان) ويبدو أن صنهاجة أشد تطرفا لهذه الدعوة.

كانت الفتنة الكبرى، سجل عنها إبن خلدون الكثير عن معاينة ومشاهدة، لأنه أقام بها تحت هذه الظروف، كما أقام فيها في فترتين أخريين... وبصفته هذه يذكر إستباحة حمى زواوة وارتهانهم جابيا للمغارم التي منعوها واستعصوا عن كل سلطان قبله (23)

ويتضح مما ترجمه إبن خلدون لنفسه أنه إتصل بشيخه إبن إدريس، وأنه تواجد ببجاية وانتظر شهرين كاملين إستتباب الأوضاع، وإخماد الفتن، عهد عامل أبي عينان (محمد بن أبي عمر المهدي - المهدية) قائد دلس والقل قبله. وهو الذي جمع مشائخ بجاية وأهل الحل والعقد، وخلع عليهم، في محرم 754 هـ 1353م. كما جمع صنهاجة واعتقل القائد (هلال) وتقبض على 200 من الغوغاء.

وفي مناسبة أخرى يذكر إبن خلدون الإستقبال (الرائع الذي حظي به، خرج له الموكب السلطاني وكافة العلماء والأعيان وقال فيما بعد،،(24)

يتمسحون أعطافي.. كناية على التبجيل! ولا ندري هل فعل ذلك شيخه إبن إدريس، وهل كان موجودا أصلا؟ ولكننا نحس بتعمد عدم الذكر أو السهو من طرف الحاجب... بعد شهرين عاد إبن خلدون صحبة العامل المريني إلى فاس (ج 7/ 391) ولكن ملازمته السكوت عن جملة من علماء الفترة، مثير للإنتباه وبالخصوص شيخه وزميله عبد الرحمن الوغليسي، وأن ذكر غيرهم في مقاطعات ومناسبات أخرى كالمشد الى صاحب إبن الحاجب.

وهنا تطرح تساؤلات نفسها تلقائيا وهي:

- ماموقع أحمد إبن إدريس من هذه الحوادث، كقطب علماء بجاية يومها؛ ماموقفه من حجابة تلميذه ابن خلدون فيما بعد؟ ماموقف كل منهما عندما اقتحمت دار شيخ الفتيا؟ واستبيحت حرمة كبير بجاية وبيت الشريعة بها،؟ وكيف نظر إبن خلدون للأمر؟ ماذا كان موقفه من الحوادث التي ألمت ببجاية وتونس؟ والتي ضربت العرش الزياني والحفصي، الذي تربطه بأسرة إبن خلدون روابط عريقة، ولم يخف تعاطفه في كتاب العبر وهو يقول عنهم (شيوخ الموحدين رضي الله عنهم- ص 303 ج6) تلك الحوادث التي أودت بحياة الكثير، وحياة أبي الحسن صاحب حلم المغرب الموحد حسب إبن مرزوق الخطيب.(25)

- هل كان كافيا أن يذكر صاحب العبر الواقعة في دار الفتوى دونما إشارة إلى صاحبها، شيخه إبن إدريس، ودونما توضيح، أو تعقيب، يتطلبه الظرف والحدث؟

- ألا يعتبر سكوته موقفا سياسيا إزاء موقف كبير بجاية التصوفي؟ لاسيما وأننا لم نألف من الرجل المواقف السطحية وأساليب القفز، ومفهوم ماهو واضح عندي ضروري الوضوح لدى القارىء! هذه كلها تساؤلات، من قبيل الإستغاثة!علنا نسعف إلى مايروي الغليل، رجاء إكتمال معالم الترجمة الشخصية لأحمدإبن إدريس، صاحب أول معهد علمي، عالي ساعتئذ في زواوة، بعد عصر بجاية الذابل عن عنفوان وينعان ولمعان...

ومع أن إبن خلدون أشار إلى أن العلماء وأهل الرأي والشورى دعو العامل إلى المسجد واصطلح (ليأمروه) أي ليحاجوه في أمر الولاية، أو يجادلوه ويحتكموا معه في الأمر- ولكن لا نعلم بالضبط من هم هؤلاء العلماء؟ ومن يقودهم؟ ومن هو رئيس المجلس؟ وقد كان عهد أبي عنان بعد 752 قاضي بجاية هو السعيد العقباني المتوفي عام (811 - 1406)

أحمد إبن إدريس في أيلولة:

كانت النتائج الطبيعية لتلك الحوادث العاصفة بساحة بجاية وبرجالها، وهي بمستوى الحدة الكفيل بأحداث الرعب في النفوس الآمنة والكريمة قبل اللئيمة..؟ وأن يلحق المساس الأكبر بأعيان القوم الذين لم يتأخر لهم رد الفعل المتواصل، من القرن الرابع عشر حتى السادس عشر.

كانت الهجرة والرحيل نجاة بالنفس والدين والعلم والمال والآل...

ووجهتهم هي زواوة أو الجبال القريبة. تلك الظروف التي غذت عامل الطرد، وأرغمت أمثال إبن إدريس على الإنسحاب منها عقب إستباحة بيته (دار الفتيا) وغادر بجاية نحو بني يعل، حيث الأصحاب والتلاميذ والآل.

ثم قرر الإعتزال في موقع أيلولة أو مالو الغابي والأجرد (...) ولكنه مهد أبائه الأول من إدريس ومحمد بن عبد الله! رغم الحاح بني يعل عليه في المقام بين ظهرانيهم، لكنه تخلى عن داره وأملاكه هناك.. ولأسباب دينية تصوفية، قرر الإقامة بالواجهة اليمنى خلف شلاطة، عند أقدام (تيزبيرت) ومعناها (تلة اللبؤة) قبلة الأولياء فيما بعد وهو أول من اختلى بها(...) ليصبح فيما بعد معلما ومعتصما خلواتيا للناسكين والعابدين والركع السجود بعد مقام بتيزبيرت الجرداء، وربما أيت عزيز حيث جامع إبن إدريس (...) يستضيف أيت علي أومحند الشيخ الجليل ويؤمنه منهم مريدوه... يذودون عن الحرمات والزيار والطلاب الذين يتوافدون على المزار، لاسيما من بني وغليس،،، ويتبعون أثره أين إرتحل وحيثما إستقر.. وهم فئات وأصناف، طلاب علم وملتمسوا شفاء ومريدون وإخوان، لاسيما منهم المشائخ في الزاوية، إذ إحتكروها مع الجنادين عبر الزمن.

هكذا تأسست (الزاوية المعهد) بربوع أيلولة، وليس ببني يعل أو أيت عزيز أو أقوسيم.. وهي أول معهد علمي، متعدد التعليم، بزواوة، وكان ميلادها في حدود 760 هـ - 1358م وقبل عهده كان الدرب ممهدا بمعمرة (سيدي علي تغالاط) قبل قرابة مائة سنة، من عهد الرواد الأوائل من الأدارسة كما تقدم (1252 -1358). (25)

معهد يختص بتعليم القراءات السبع والعشر، وبتعليم علوم اللغة والدين، لاسيما فقه إبن الحاجب، ومبادىء التصوف الأولى (الأذكار)- بمثابة النافذة الأولى على بجاية.. رغم شهرة هذه الزاوية المعهد عبر الوطن، وعبر التاريخ منذ القرن 14م، فإننا لا نملك لسوء الحظ الكثير حول برنامجها وطلبتها.

إبن إدريس في المصادر:

لا بد من التنبيه إلى ماتردد في كتب المعاصرين من أن السيد منصور الجنادي الذي اشتهر مقامه وخلوته (بتيزيبرت)قبل استقراره (بتيمزار) حيث يؤسس الزاوية، ويتولى شؤون القبيلة السياسية والدينية والإدارية متحديا أمير كوكو عمر بن القاضي 1618م ويتضح مما سجله (داوي محمد) أنه أقام دارسا أو مدرسا بمعهد إبن إدريس، وليس معاصرا له وأن خلوة (تيزيبرت) أصبحت سنة لكل العلماء والمتصوفة، وهي إحدى سمات العصر الثقافية، حتى في الفترة الحديثة بعد مائتي سنة من وفاة الرائد الأول لها...(27)

ولتناول إبن إدريس إنطلاقا من مصادر خاصة به غير متوفر وكل مانعثر عليه هو ذكر عابر في كتب وموسوعات أو مجلدات، لاسيما منها كتب الأنساب والتصوف أو التي ينصب إهتمامها على المجال الفقهي والتصوري عموما.

وحتى التناول العرضي للرجل لا يكاد يحصل بينهم الإجماع والوفاق حتى على إسم الرجل، فهو محمد عند (هانوتو) وآخرين، وأحمد المعاصر لسيدي منصور عند آخرين وامحمد بن إدريس من فاس إلى زواوة سنة 312 هـ عند (ابن العربي). كما أن الفترة التي يعيدونه إليها تختلف من مصدر لآخر فمنهم من يعتمد القرن الثامن ومنهم من يفضل القرن 16 لما يشتبه لديهم بينه وبين محمد إبن إدريس الهواري المذكور من طرف مخطوط طالب من بني يعلى.(28)

ويظل إبن إدريس يرقب التفاتة الدارسين رجاء إعادة بناء تراثه وجهاده وتفانيه في خدمة الثقافة العربية الإسلامية، التي لا يستعبد أنه أوذي في سبيلها ومن أجلها، وخير معين للدراسة يكمن في التراث بأيلولة وبني يمل وبني وغليس وبجاية.ومأساتنا تكمن في نظرتنا ومواقفنا من كل ماهو تراث شفوي،

إبتذالا، ولانعدام أي جهد عبر العصور من أجل كتابة تاريخ يخلد المآثر والمفاخر والهزات والإنقلابات فلا الشفاهي كان لنا عضة ولا الكتابي أرشدنا الإعتبار ورغم كل التعاليق فان جهود المترجمين الفرنسيين وغيرهم تبقى دينا في أعناقنا، ولولا هم مابقي لدينا اليوم تراث ولا تاريخ ولا الأنساب ولا التراجمة.

زاوية أحمد بن إدريس:

هل هي معمرة أم معهد أو رباط؟معهد يجمع بين العلم والتصوف.. مؤسسة علمية خيرية دينية. إنها تطوير للتجربة البجائية واستمرار لها، فالمعهود أن الزاوية تكتسب مكانتها وجاذبيتها من مكانة وأهلية وشهرة الشيخ المؤسس. وإذا توفي تشبثت بالتراث الفكري والتربوي الديني للشيخ واستمدت منه إسمه، وهو ماانتج نوعا من الإختصاص.(29)

غير أنه إذا اعتمدنا المصادر المعاصرة المحلية كعمود النسب والغبريني والورتلاني وكتب الأنساب وغيرها من المختصرات المدرسية، في شتى الفروع المعرفية بما فيها معالم الإستبصار وتاريخ البوادي والأمصار لإبن علي شريف، في علم الفلك والتنجيم (الميقات).

نكاد نجزم بأن أولى الزوايا بالقبائل تطورت عن المعمرات والكتاتيب الأولى، وأقدمها مكتب أحمد بن عبد الله المذكور 1252م ثم تليه (معمرة على تغالاط) لدى بني يتورغ فمعمرة على الكوسيمي بأيلولة قبل 1284م وهو تاريخ إنتقال سيدي يونس الزلاجي من زواوة نحو القبائل الشرقية تقريبا (13م و7 هـ) القرن الثالث عشر الميلادي والسابع هجري). حسب عمود النسب المشار إليه(30)

وطوال قرن من الزمن تولت هذه المؤسسات الأولى رسالة نشر الثقافة بهذه الربوع، التي تمثل خريطة الإتحاديات المكونة لمملكة (شمسي) في بني ييراتن 1347م التي تطورت بعد قرنين إلى مملكة (كوكو) لأسرة إبن القاضي 1510م .(31)

جدير بالإشارة إلى أن هذه المعمرات، هي التي تضطلع بمد الزاوية المعهد بجمهور المتمدرسين، وهي تؤهلهم لمستوى أعلى من العلوم اللغوية والدينية بعد تلقينهم القراءة والكتابة وتحفيظ نصيب من القرآن على الألواح، جمهور يرتب في الزاوية (جديد) أو مبتدىء (قداش 32)

لم يكن مستواها يؤهلها لتدريس المواد الأخرى، من فروع المعرفة المتوفرة في ذلك العهد، وأصعب هذه المعارف بكامل المغرب وليس بزواوة فقط هي القواعد اللغوية والفقهية بشهادة إبن خلدون، ذات الإقبال الكثيف من الطلبة المغاربة، وهي تصب في منظومات (شعرية) تسهيلا للحفظ مثل ألفية إبن مالك التي يتلذذ بترديدها ملحونة:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم

إسم وفعل ثم حرف الكلم

فهذه تتطلب إنتسابا متجددا إلى المعهد المتوفر على الشيوخ المؤهلين لتدريس هذه الفروع، مايفرض بالتوالي علي الشيوخ ألا يرضوا بمشيخة في غير معهد من إختصاصهم.

بينما تقف بعض الزوايا موقف المتحجر الرافض لأي إصلاح للبرنامج بإضافة مواد دراسية أخرى إلى الدراسات التقليدية والمتواترة عن الشيخ الأول.

ظاهرة الزاوية بالقبائل:

ولا بد من تصور لأدنى مبادىء التربية التي تمثل مراعاة (المحيط والمستوى)، فهؤلاء الرواد ثبتوا الرسالة وتخلوا عن الأبراج العاجية، فتعلموا (لغة القبائل) ودرسوا بها، وبها شرحوا مختلف المعارف من الفرائض والعبادات والبيوع والمواريث وحتى الحساب... فهناك إصطلاح خاص بالزوايا نجهل العهد الذي يرجع إليه ولكن الأعداد مصطلح عليها أما بالحروف الغبارية وأما بالألفاظ، وليس هذا مجال الأطناب فيها، ولكن لا بد من الإشادة بالفضل لذويه، ولم ينالوا الحظوة والإقبال حتى نزلوا من أرفع المستويات إلى أبسطها وربما الأكثر منها سذاجة .. كما كان لادراج علوم التصوف أثره الأهم ونجاحه الباهر، لأن المتعلم قد يقبل نقط على الألفية أم قطر الندى أو القراءات... بينما يقبل عامة المسلمين القرويين على حفلات الذكر والحضرات الليلية، ولن تمر الإفترات من الزمن حتى تمايز جمهور المريدين والمتصوفين والذاكرين (الإخوان 33).

وهذا أهم عامل ساعد على النجاح في جهود الرواد الأوائل وسيادة مناخ لنمو وازدهار الجماعات الدينية والتراث العقائدي ولا نعتقد بأن مثل هذه الظاهرة كانت غريبة على بجاية، لأن عنوان الدراية يوليها مكانتها من عهد بجاية (أبي مدين) صاحب أولى الحلقات الدراسية (34)

وهكذا لم يمض نصف قرن حتى شهدت جبال ووهاد القبائل شبكة من قلاع المعرفة والدين والزهد، قائمة على الورع والتقوى والمستوى (الجماهيري) على يد أمثال سيدي يحي العيدلي وسيدي يحي بن معمر وتلاميذتهما يحي بن عبد

الله الشريف ويدير بن صالح الجمهوري وأحمد بن مالك ومحمد بن الحاج وعمر بن الحاج وهم يعودون كلهم إلى القرنين (8و 9)هـ. ولهم جميعا مؤسسات (زوايا معاهد) مفتوحة أمام طالبي العلم وطالبي رزق أو شفاء.. غذاء الروح والجسد.. وهي بهذا جامعة بين مهام المدرسة والجامع والمستشفى ومرافق الإيواء والإطعام لذوي الفاقة (عيال الله).

مكانة أهلت زواوة التي تتوفر على الشروط المادية والمعنوية. والأطر النظامية والأمنية، الحصانة لاستقبال أعظم علماء الجزائر والمغرب وتونس -طلبة أم مدرسين من أمثال محمد الهواري وعبد الرحمن الثعالبي منتصف القرن 14 وأوائل الخامس عشر وأحمد بن يوسف الراشدي مؤسس زاوية لدى (بني منجلات) بعد مقام دام 8 سنوات وهو من أوائل شموع القرن 16م وصاحب المقامات مع خير الدين بربروس، كما خلف ذرية في القبائل من زواج بها ما يزالون حتى اليوم في (زرخفاوة) أوحند يس !

وأهم هذه المعاهد في الفترة الحديثة (عهد الإمارة) هي زاوية يحي العيدلي، الشرفاء بهلول زاوية علي بن موسى زاوية أمحمد السعدي البهلولي زاوية سيدي منصور الجنادي، زاوية علي بن الطالب زاوية عبد الرحمن الأيلولي زاوية سيدي الموفق وسيدي موسى تنبذار. وغيرها في محيط واسع كبني يبراتن وبني جناد وبني يعلى وبني وغليس وقشطولة ويتورغ وبني بترون وبني منقلات وبني فراوسن (الجمعة) ومشدالة دلس وغيرها كقلعة إبن عراب في شرعيوة والسكلاوي بنفس الربوع 36.

تسيير الزوايا:

مابين المصباح والصباح ظل التنافس الظريف بين طلبة الزاويتين، ماثلا ولكن مع إختلاف هام في القانون والبرنامج وشروط الإنتساب.

بالرغم من أن الينابيع الأولى لهما منبثقة عن تجربة أحمد بن إدريس وبجاية، قانونا وبرنامجا وطرائق التدريس والإجازة، مايجعل من الزاوية نظاما موحدا، طفيف الفروق والبنود، يشرف عليها -مقدم العسكر- (للإنضباط والدراسة والعبادة والسلوك) وهو بمثابة المراقب العام، يؤازره في التسيير (مقدم الثمن) وهو بمثابة الوكيل المتصرف.. وبهذه الإزدواجية في الإشراف يتوصلان إلى حسن التسيير والإضطلاع برسالة الإدارة بكل الصلاحيات التي تطرح أمام مجلس من (المقدمين) بين (10 و12) والمجلس الإستشاري ، رئاسته إزدواجية، مدة شهر أو نصفه، ويتولى التدريس الطلبة القدماء، الذين يدرسون بدورهم على شيخ وظفوه هم أنفسهم أو بتزكية من هيأة محلية أو مندوب العائلة (القرابة في الزوايا) مثل سيدي منصور وغيرها، ومن السمات الخصوصية لإبن إدريس هي تنوع المحيط من جمهور الطلبة وجمهور (الإخوان) ومن الزوار والمقيمين مددا تختلف قد تصل أكثر من السداسي، كما أن شيخ زاوية إبن إدريس يمثل سلطة ذات نفوذ وكلمة الفصل... يؤازره في تأدية مهامه لجنة من أعيان القرية والناحية وأقرب العائلات تقليديا.(37)

وفي هذه الزاوية لا يستثني القانون الداخلي أي إنتساب لطالب علم أو مريد من الإخوان مهما بلغ عمره، غير أن الإنضباط محفوظ بمقدمين مستقلي الصلاحيات والمجالات، نادر مايحدث بينهم الصراع، لأن ذلك محسوم بالقانون الذي يحتكم إليه الجميع، ويتدخل فعال للجان إستشارية داخلية ومحلية.

وحسب إبن زكري فزاوية إبن إدريس تقبل كل من يحتمي بحماها، لأنها أشبه ماتكون بالزاوية الصوفية، ولاتقوم إدارتها بأي تحرّ في ماضي المنتسب الجديد إليها، كما هو جار في جارتها (الأيلولي).(38)

وماتزال بالزاوية الطقوس المصاحبة للإستشفاء لدى الزوار، ومظاهر الذكر (الحضرة) العلانية الغنائية والراقصة ليلة الخميس، وفي مناسبات الأعياد والمواسم، بينما تكتفي الأخت المجاورة، بإحياء ليلة الجمعة في تبجيل وورع وتقوى وذكر وتلاوة الآيات البينات تجويدا.

زاوية إبن إدريس بين الخطاب الشعبي والرسمي:

إنه مما يبعث على العجب والحيرة أن ينسج حول هذه القلعة نسيج من الذم والإنتقاد والدعاية، والأعجب من الكل أن يكون هذا متواصل الحلقات عبر العصور، ومن عهد الورتلاني الذي تحدث عن طلبتها بأسلوب (الأخيار والأشرار) ودعى الله أن يهلك الفئة الظالمة منهم.. ومن عهده إلى العهد الفرنسي، ظلت الزاوية تحاط بهذه الأحكام الجزاف..

فهل اكتست هذه الكلمة طابع العداوة محليا وخارجيا؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد منافسة بين الزاويتين المجاورتين -تفصلهما فقط 100 متر، حتى وإن كان محيط الطلبة والأشياخ بريئا من هذه الشناعة، فإن مجرد ملاحظات، وأحكام صادرة عن نوايا خالصة، قد تتحول في المحيط القريب والبعيد إلى قنابل موقوتة الإنفجار..

وما يلاحظه الدارس هو موقف الزاوية من السلطات كائنا من كانت فهي من المعاهد القليلة التي عزت على الإدارة التركية، والتي أنجرت في سيول الثورة، لاسيما آخر العهد العثماني كثورة إبن الأحرش بالقبائل الشرقية ووادي العثمانية ومواقف سابقة توضح عدم تقرب الأتراك منها وحرمانها من الهبات والصدقات والخدمات، على غرار مافعلوا مع زاوية الشرفاء بهلول، وسيدي أمحمد بن مالك، والشيخ بن أعراب وزاوية منصور الجنادي.(39)..

تاريخ أهل الزاوية لأن تصبح قلعة كل الثورات التي قامت في زواوة وعبر الوطن، لاسيما خلال العهد الفرنسي، وليس أدل على ذلك من قيادة شيخها جيش مجاهدي الإتحادية (أيلولة يجر) تحت راية شيخ الزاوية غداة الغزو الفرنسي (1857/ 1830) ومن إحتضانها مقر ثورة محمد بن عبد الله

(الهاشمي) المعروف (بومعزة) وقد دفن رفاته بحرمها حتى اليوم، قائد حرب 1847 التي يعتبرها الفرنسيون تجنيا وخداعا لفظيا (ثورة).. فهو الذي قاد جحافل المجاهدين من أيلولة، ايلتين، يجر بني غبري، بني زيكي.. وهكذا كانت للثورات المتتالية كلها قاعدة ورباطا من أربطة الهجوم والتراجع والأمان، وهو نفس الدور في الثورة المظفرة 1954. ونعتقد أنها هي التي أوحت لهانوتو بأن يصرح أن كل الثورات و الإنتفاضات وراءها شيخ زاوية وطلبته وحركة إخوانية عموما ونعتقد أن مصطلح (مجمع طلبة الدبوز) ترتكز مفاهيمه وأبعاده على معاني الدفاع، والجهاد والذود عن الحرمات وحماية حقوق الطلبة الأبرياء من كل معتد مستبد في ربوع زواوة شرقها وغربها، وللزاوية أملاك في أيلولة وفي بني وغليس وبني يمل...

حتى عثرنا على الخطاب الشعبي ينسج على المنوال السالف تجريحا وتشنيعا بها وبطلبتها! وعلى المنوال أيضا نحا إبن زكري وانتهج في كتاب أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل لولا أن الرجل بدا أكثر رسمية من النظام القائم يومها (1903). ولكن التراث الأمين بأيلولة شفيع، وهو يؤكد بتجرد مكانة الزاوية ومؤسسها كرباط علم وجهاد وتصوف.

إنها القائمة على أسس العلم في يد والسيف في الأخرى (البندقية) فالحق والرسالة لن تقوم لهما قائمة بغيرهما (...) ولا يزع الله بالقرآن مايزع بالسلطان...

كل الحوادث المتلاحقة والشهادات تؤكد نوع الزاوية كرباط علم وجهاد، ملجأ للمظلومين والتائبين، ضحايا الجور في كل العهود، وأنها كذلك كلما سئل عن لب إبن إدريس، وكلما كانت الوجهة والمآب خدمة الجلالة.

الإحالة والهوامش

1) إبن زكري السعيد. أوضح الدلائل على وجوب الزوايا ببلاد القبائل 1903 ص 70، 72.
2) الحفناوي بلقاسم، تعريف الخلف برجال السلف / كسيمة ج1 ص540.
3) الغبريني أحمد، عنوان الدراية في علماء المائة السابعة ببجاية ص 133، 134.
4) مخ الأنساب، شجرة نسب إدريس أحمد بن إدريس/ التومبكتو نيل الإبتهاج ص 71.
5) البوجليلي أبو القاسم التبصيرة في علم القراءات ص2 (مخ)
6) مخلوف ع، شجرة النور الزكية ص 304، 308.
7) إبن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتداء والخبر... ج7 ص452.
8) المصدر السابق ج7، 452
9) الغبريني أحمد، عنوان الدراية ..ص287
10) إبن خلدون عبد الرحمن العبر وديوان المبتدء والخبرج 7ص 289، 290، 291.
11) التومبكتي، أحمد بابا نيل الإبتهاج بتطريز الديباج ص71، 81
12) إبن مريم.. البستان في علماء تلمسان ص228.
13) المصدر السابق..
14) بوليفة جرجرة عبر التاريخ (100، 140)
15) إبن خلدون عبد الرحمن العبر وديوان المبتدأ والخبرج 7 ص 218
16) فيروش، عنوان الأخبار ببجاية (مترجم) مجلة إفريقية رقم 12ص 335، 345.
17) نيل الإبتهاج وتطريز الديباج ص 71.
18) إبن خلدون عبد الرحمن كتاب العبر ج7 286، 301
19) المصدر السابق ص281.
20) إبن خلدون عبد الرحمن كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر... ج7 289، 301.
21) إبن مرزوق الخطيب.. المسند الصحيح الحسن... ص354.
22) إبن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج7، 289، 281.
23) إبن خلدون عبد الرحمن كتاب العبر. ج7 ص416
24) المصدر السابق
25) إبن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن ص69
26) الغبريني أحمد، عنوان الدراية في علماء المائة السابعة ببجاية 134
27) داوي أحمد، ترجمة سيدي منصور وزاويته (مخ)

28) فيرو- ش- عنوان الأخبار ببجاية -م، إ. عدد 12 ص335. 345
29) إبن زكري السعيد أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل ص72
30) العشابو أحمد تاريخ الأنساب ص 18 (مخ)
31) الشعب جريلية 1991.. موضوع أحمد بن القاضي الزواوي الجبلي-
32) إبن زكري.. أوضح الدلائل.. ص62
33) مخلوف محمد شجرة النور الزكية ص 445
34) الغبريني أحمد عنوان الدراية في علماء المائة السابعة ببجاية ص 34ومليانة- 88
35) الحاج صادق- مليانة ووليها أحمد يوسف 82، 90
36) إبن زكري. أوضح الدلائل.. ص72
37) المصدر السابق.
38) نفس المصدر
39) روبين مملكة الجزائر (م إ) عدد 17، ص132، 192.
40) هانتو، القبائل والعادات القبائلية ج3 ص140...
1) هانوتو. القبائل والعادات القبائلية ج3 (ص 380، 388) (14) 18. 19
2) داوي أحمد ترجمة سيدي منصور، مخ (4)، (7) (11) (17) (26) (28)
3) رين مملكة الجزائر Rin
4) عليلي، شجرة العائلية (اليجري) مخ
5) كاثكارت القنصل الأمريكي من المغرب - السير الداي ص115
6) الورتلاني حسين (الرحلة) ص 540
7) رسالة عمر بن القاضي لفيليب III 25 جوان 1603 إرشيف Simanc
8) برايي (بيير)/ أسطورة ملوك كوكو ص 41
الحاج سعيد إبن الشاعر/ إبن زكري أوضح الدلائل ص 89، 55، 73...
العشابو (مبارك) شجرة أحمد بن يوسف زر خفاوة مجموع أنساب ص. 41
أبن زكري أوضح الدلائل ص 72
إبن زكري سعيد أوضح الدلائل ص 99
عبد الرحمن المقنيعي، التدهات رواية 1993
اليعلي الزواوي الإسلام الصحيح ص 51 حتى 70 وكذلك (22) ص 17 وتاريخ زواوة ص 51

و بقيت تلك الدعوة الى الآن بالمشابهة و المعاينة .
و للوصول الى وطننا و فرقتنا استرحوا به و فرحوا
ببركاته و غابته نزل في نخل عندنا يقال له الحمام
و بنى خيمة صغيرة فيه للعبادة و جاء الناس اليه
ابواجا خصوصا قبائل عرشنا في جساد مطلقا من جهة
البحر و الشرق او الغرب فصاروا يخدمونه كل الخدمة بطعام
بصدق نيتهم و صفاء قلبهم و احترامهم له فسكن هنا
و تزوج و ولد له اولاد و كل والي هنا في هذا العرش
اخاذ له و سلم و خضع له/ و السلطان في ذلك الوقت
هو المسمى ببلي امرين القنتسي و هو يحكم في بلاد
الزواوي كلها فكان حكمه قاهرا جدا و من عادة هذا
السلطان ان يعمل البغال و الحمير من عرشنا في وقت
الصيف لنقل زرعه و الخدمة نفسه فيطال على الناس
اشغالهم دائما و من عادته ان ياتي هو وجنوده الى سوقنا المسمى
بالخميس في ذلك الوقت و الآن يسمى بالأحد فيلزم العرش
بالضيافة تصل اليه في ذلك الحال مع الدواب العسكرية لحمل
جيشه و في بعض الايام جاء ذلك السلطان الى السوق المعلوم
فاراد الناس من العرش ان يذهبوا اليه بالضيافة كالعادة فقال لهم
سيدي منصور لا تذهبوا اليه فلا ياتي هو الى هنا [illegible]
امونه ولما راى السلطان من [illegible]
و صار يستل من [illegible]

سيدي منصور الجنادي

رائد المعارضة لسلطان كوكو 1618

سيدي منصور الجنادي رائد المعارضة

تمهيد:

ترجمتنا هذه نخصصها لسيدي منصور الجنادي المنيعي، المرابط صاحب زاوية تيمزار لدى بني جناد.

فشخصية المرابط ذات أبعاد وإشعاعات تربوية ودينية إلى جانب لمعان قدر هام من التأثير الطرقي في زواوة وفي بني جناد. فهو أيضاً أكثر لمعاناً كدور أساسي، واضح العلاقة بلا غبار مع سلطان كافة زواوة في وقته.

إنه من الشخصيات الفذة بزواوة التي يشهر المعارضة في وجه السلطان، ويتحداه صراحة بلا مجاملة ولا تملق أو خيفة.

ومن هنا يرتبط المرابط منصور بالأحداث المصيرية التي عصفت بالإمارة وبالقبائل عموماً، ولم يكن له موقف المتفرج منها.

إنه شخصية مجهولة، فهو رجل علم ودين، شيخ طريقة وقائد جموع أعيان عرش بني جناد- سلموا له الأمر لا يعصونه... وهو أيضاً من المرابطين القليلي الذكر خارج الإطار الديني والولاية والكرامة... وكان لجوؤه إلى زواوة لغزاً، لأنه لم يأتها بانفراد بل صحبة أربعين منيعي... وهم مؤسسوا قرية كاملة حالياً بتميزار عرش بني جناد...

وترجمتنا هذه تهدف الحوم على السؤال بأجوبة موثوقة وتحاليل جريئة ونقد، ربما صريح في بعض الأحيان، لكن السؤال كبير فمن هو سيدي منصور؟...

سيدي منصور الجنادي من مشاهير علماء وصلحاء زواوة، شهرة تعززها زاويته بتيميزار، وعلاقاته قبائلاً ووطنياً، عبر العاصمة.

وهو من المرابطين القلائل الصريحي المواقف السياسية والتأثير في وجهة الأحداث والرجال خلال القرن 17.

شيخ زاوية شأن العديدين، الواردة أسماؤهم والمقتحمين التراث والرواية التقليدية والميثيولوجيا القبائلية.

والعائق أمام المهتم بالترجمة للرجل، وغيره، وهو الرائد خلال العهد العثماني الأول ومملكة كوكو قبل إنهيارها واضمحلال سلطانها- على يد سيدي منصور- حسب وثيقة الداوي سنة 1618م.

العائق هو المصادر والتوثيق- باستثناء ترجمة مقتضبة له ولقانون معهده. وعلاقته مع الجزائر ومع سلطان كافة بلاد زواوة حين زاره وهو الشهير في التاريخ والمراسلات والأسطورة (عمر بن القاضي). لا نكاد نعثر سوى على مجرد ذكر محتشم له في كتب التراجم والتاريخ، وحتى الأنساب والرحلات، كما لدى ابن فرحون وبن المبارك أعشابو، وبن عميرة والورتلاني، أو كما لدى الفرنسيين الذين كتبوا عن العهد العثماني، وترجموا الكثير من التراث والرواية والقانون والحركة الصوفية، وهي عندهم طرقية وجمود وظلال ولكن اهتمامهم ينصب على نواحي الجمع والترجمة والتحليل والنقد والحفظ.

من أمثال (نوفو- وكوبلاني وبروسيلارد،) الذين يتناولون الموضوع من الزاوية والحركة المرابطية والطرقية (الأخوان) وهي عندهم طقوسية، عندما عجزوا عن التوغل بعيداً عن المظهر الخارجي، ورأوا منها مجرد ظلامية وتحجراً فكرياً، وحتى الزاوية- الإشعاع الخالد رمزاً للحضارة الإسلامية المتواصلة عبر القرون، لدى بعضهم عبارة عن دير من أديرة رهبانهم حسب هانوتو.(1)

ومن المهتمين بشخصية سيدي منصور من المعاصرين كل من بوليفة السعيد وبن زكري، وأبي يعلي الزواوي، غير أن اهتمامهم يختلف مابين ذكر عابر نقلاً، إلى إشارة غير متعمقة، ومن السطحية بمكان، لأنها تردد نفس أخطاء الغير السابقين.

أمّا المعاصرون فلم نقرأ لأحدٍ مطلقاً موضوعاً حول هذه الشخصية وهذا مادفعنا إلى خوض هذا المعترك، اعتماداً علي وثائق ورسائل، وأيضاً على التراث المحلي، غثه وسمينه، وإذا اعتبر دعاة العلمانية هذه المعارف والمكتبات المحمولة عبر دارة الأجيال خرافية وأسطورية، فأنا أروم، وبكل فخر الذوبان فيها وتقمصها لأنهم لا يعتبرون هوميروس ولا تيتوس كذلك، وفقط ما يتصل بتاريخنا المروي محلياً، جهوياً، وطنياً، إسلامياً...

ولأول مرة تتجلى شخصية رجل دين ومؤسس زاوية كرجل سياسة وقائد ومعارض خطير لرجل دولة وسلطان صراحة ومواجهة... فهذا هو الهدف من ترجمتنا لمنصور الجنادي.. وهي الرسالة التي غمرتها نوايا الإستهانة والإستخفاف، بل الإحتقار والترفع لدى الكثيرين...وخلال ترجمتنا نهدف كشف الحجاب عن هذه الشخصية، مع مراعاة الجانب البيوغرافي النسبي، والدور السياسي، وقيادة رجال الطريقة.

لأنه معاصر، وصاحب دور خطير في حياكة نسيج الوقائع التي شهدتها إمارة كوكو. وعند الداوي- سلطان كافة زواوة- في آخر خطوات مسيرتها، على عهد عمر بن عمر بن القاضي، أو عمر بن أحمد كما في إحدى رسائله لقائد بجاية الإسباني 1544م.

وعمر هو الشهير في التراث القبائلي بالمقولة المختصرة والمحكمة النظم (سلطان تمورا مفتاح تبورا... كل شيء عند سيدي يورا، يعفو ثيذ انتورا)... أي سلطان البلدان، مفتاح البيبان، كل شيء عند سيدي ربي مكتوب مقدر، وهو الغافر ماوقع لنا وما أصابنا...

حياة سيدي منصور ونسبه

يقسم بنوجناد- بنو بحر عند ابن خلدون- عندما يحلفون، أغلظ الإيمان، بسيدي منصور وأربعين (منيعي)...

فالمرابط منصور إذن حقيقة ثابتة بخلوة الحمام، عند الزاوية الحالية، وأربعون منيعي ثابتوا المواطنة بقرية تيميزار، دوار ايزرازن.

الموقع الذي يحتظن الزاوية منذ أن استضاف المرابط منصور المنيعي، أواخر القرن 16 م وأوائل السابع عشر. بوجود ثابت مؤكد كتابياً ذكره في 1618م.

بالرغم من أن داوي يعيد نزوحه إلي زواوة إلى القرن 9 هـ، ماهو ناتج عن ضعف الذاكرة التاريخية عند القبائل، ولأن داوي نفسه يتحدث عن لقاء المرابط منصور مع سلطان كوكو، ويصرح بموته- انقضاء أجله- كما سيأتي.

يموت السلطان مقتولاً بعد أربعة أيام من هذا اللقاء، وتصدق نبوءة المرابط وفراسته، في سوق بني جناد الأحد...(2) فمنصور إذن لاجئ إلى بلاد زواوة كأغلب الأولياء، وقد حاول الورتلاني إعادة رسم خريطة الرحالة منصور، لكنها في المراحل التي قطعها في القبائل فقط، لا سيما منها، الإختلاء بتيزبرت (عرين الأسود) وانتقاله إلى ايعكورن، حيث لم يستقبل إستقبالاً حسناً، فخفف مقامه، وخف رحله، واتجه صوب تمقوط التي كانت يومها عامرة وقيل عنها إحدى محطات الإمارة وإقاماتها. وكانت هذه المتاعب بسبب موكب المرابط العديد الأنفس والحيوانات ولكونه ينتقل صحبة أربعين منيعي، وينظم إلى القافلة الزوار وملتمسوا البركات والكرامات، وحتى المتطفلون....

لم يطل المقام بالرجل هناك، فقصد تيميزارحيث يستقر لدى بني جناد، ويؤسس لهم زاوية معمرة، لتعليم علوم اللغة وتحفيظ القرآن، حتى غذت بشعاعها ألمع زوايا القبائل في عهده ومابعده- القرن 17 م.

وهل كان موطنه منيعة أم بوسعادة؟ وماعلاقته بأسرة منيعة الهاملية؟ وهل يرتبط بعلاقة دموية مع الأربعين منيعي ومع أسرة الداوي؟ أيت الحسين أو آل يوسف الذين ذكر منهم أبو يعلي قائمة هامة من العلماء والمهاجرين إلى الشام... ويذكر في التراث آل الشيخ أحمد بن يوسف وأخوته، لاسيما إزاء موقفهم الجريئ في الواقعة الشهيرة بفتوى الشيخ أرزقي الشرفاوي قبل 1945. كل ماتقدم من الأسئلة ظل معلقاً عبر السنين والقرون الثلاثة في غير الذاكرة الجماعية للطلاب والشيوخ، والتي طمستها الحضارة بالشاشة والصورة، حتى لم يعد لدى بني جناد وغيرهم من هو أهل لإعادة المرابط منصور إلى زمانه الحقيقي، فضلاً عن إعادة بعث شجرة نسبه، وحتى بعض الشجرات والمخطوطات التي بحوزتنا لم نعثر فيها على ظالتنا.

كل معلوماتنا المعتمدة عن أسرة (داوي) أن سيدي منصور ضيفهم، هي التي سبقت مقامه، واستقرت قبله بعهد طويل، أو قصير، وهي الآوية له معززاً مكرماً، مؤمناً (الأمان) هو وصحبه الأربعون، أو مريدوه... أو جنده وهذا أيضاً وارد لأن المنيعي بالقبائلية هو (الحارس الجندي)... من منع الرجل... فداوي إذن لم يحسموا الأمر فيما يتصل بالنسب المنصوري، فهل هو منهم؟ وهل هم منه؟ ولكنهم يرجحون الإنحدار المنيعي، وذلك بأواسر قديمة بين منيعة بوسعادة ومنيعة تيمزار... وتوجد قرية بكاملها تحمل الإسم (داوي منيعة) أو أيداً منيعي... وهم عرب من وادي الساورة أو الظهرة، فروعهم متناحرة متحاربة في قيروقنادسة وزوسفانة (زلفانة) ويذهب (سيموني) إلى أن الجماعات (داوي) خمسة فروع. ولكن ثلاثة منها فقط هي الأدارسة- أولاد سليمان.(3) وبالنسبة

للمحدثين. فسيدي منصور التجأ أول الأمر. إلى كوكو ثم انتقل إلى إيلولة أومالو. حيث يختلي بالخلوة الشهيرة- تيزيبرت- صحبة عبد الرحمن اليلوبي وأحمد بن إدريس.!

ولكن هذا الإدعاء تعوزه المرجعية التاريخية لأن الإطار الزماني متباعد... ولكن احتمال مروره بالمكان وارد. يؤكده خط الرحلة الذي سلكه للوصول إلى تيمزار، وكذلك بعض روايات وعلاقات نسجت خلال الرحلة لدى بني يجر، أمّا احتمال مروره بكوكو، فهو ممكن حسب الردود المعلن عنها في ترجمة داوي أحمد.(4)

أسرة المرابط منصور

المذكور في المصادر مروية أم مكتوبة. أن لسيدي منصور أخوات تزوج منهن موسى بن احمد واعلي. جد أسرة اليجري. وله أيضاً بنات تزوج منهن أحفاد أحمد بن علي فيما بعد.

ويورد داوي في ترجمته أنه ترك أولاداً، لكنه لايعرفنا بمصير هؤلاء الأولاد، ومكان تواجدهم، ولا يؤكد علاقتهم صريحة بأسرة آل يوسف. كما لم يدع النسب المنصوري صراحة.

المؤكد حسب فروع الأسرة ومصادرها المتواترة (ترجمة عليلي) أن المرابط منصور ومواطني بني جناد تدخلوا مراراً إلى جانب أحفادهم من عائلة (أحمد واعلي) وأعاد وهم غير مامرة إلى موطنهم الأصلي، بعد أن طردوا منه... وكلما التجأت إحدى بنات أو أخوات أو حفيدات منصور لتيمزار إثر ترمُّل، أعادوها مع ابنها بعد الفتوة، وأسبغوا عليهما (الأمان).

بل تعددت المرات التي وضعت فيها زيجات من الأسرة أحمالهن بين أحضان الأسرة، وفي حمى بني جناد، الذين لا يبخلون بأمان ودعم لانسابهم، حتى وأن تطلب الموقف دخول حرب، وهذا مايؤكد استمرارية حوادث الفتن والحروب، وشرارتها اللهوب بالقتل والإنتقام بين بني جناد وقبائل أعالي زواوة.(5)

غير أن أهم هذه العلاقات هي التي تربط سيدي منصور بمحيطه أولاً ثم بالعاصمة التي تؤكد وثيقة داوي أنه أقام بها، وأن معرفته لها جيدة، لن تتأتى بغير إقامة طويلة وتردد اعتيادي، إقامة وفرت للمرابط إمكانيات ربط العلاقات مع السلطة التركية ومع الجالية الجنادية القديمة بالعاصمة. وقد درج الأتراك في سياستهم على جذب المرابطين وكسب عطفهم وبركاتهم ودعواتهم

بلغة الوثائق. حتى تتمكن من تغذية المعارضة القبائلية لكوكو. وتحافظ على سير استغلال غابة تامقوط الثرية الخشب والفلين...

ولعل ماشهد به الورتلاني هو نفس الشهادة التي أدلى بها (كاثكارت) (الأسير وقنصل أمريكا) أواخر القرن 18 عندما ذكر أن المرابط منصور من بني يميراتن وابنه أحمد بن مجدوبة. ولد الولي الصالح البالغ التأثير والدور (منصور) من فليسة يمتد نفوذه وتأثيره حتى باب الحديد. وهو الذي هدّد الداي بالثورة عند تعقبه لحسن باشا اللاتذ بجامع ويلي. بالجزائر... وكان تراجع الداي وإخلاء سبيل المعتصم بالجامع 1788.(6)

بالرغم من أن عصر الرجل هو عصر مرابط آخر شهير هو سيدي علي بن الطالب وآخر أيضاً هو سيدي عبد الرحمن الأيلولي، فلا نكاد نعثر على مجرد إشارة لوجود تواصل أوروابط بين الثلاثة وكلهم من القرن 17 م يكبرهم سيدي منصور بحكم وفاته في 1644م، ولكن زاويته المزار قبلة كل ذي حاجة إلى دعم روحي وعلاج نفساني، أو كل مكفر عن ذنب أو كل موف بنذر... لاسيما وأن ابن الطالب هاجر بني جناد إلي القبائل العليا. وفي عهد عرفت فيه زاوية المرابط منصور ازدهاراً ونفوذاً اجتماعياً وعلمياً وسياسياً لا مثيل لها في ربوع زواوة، إذ غدت فيه رباط قيادة الطرقية والمعارضة. وهذا مايشرح لجوء ابن الطالب إلى كوكو وفق مسعى والتماس ملحاح من أمرائها، حتى تتمكن من مواجهة المعارضة بزعامة سيدي منصور. عندما تجمع بين النفوذ الديني والروحي إلى جانب النفوذ السياسي.

ومهما يكن فإن تأمين ابن الطالب والتكفل به إقامة وحماية وإعانته علي تأسيس الزاوية. كان مواقف ذكية. لا تقل دهاء عن أية معارضة. فأبناء القاضي رجال القيادة والسياسة والجهاد، وهذا وحده لايؤهلهم لإقامة سلطان بزواوة لأن الذهنية الجماعية والذاتية الفردية والقبيلية تعتز أكثر وتنقاد للأمان

الروحي الديني بعد أمان حاكم أو سلطان، ولهذا كان من التدين الفكري والعرفي الإنتساب والإنضواء تحت سلطة مُرابط رجل دين وشيخ مبجل، حتى عندما تتلاحق الركبان للحرب.

ويبقى مقام ابن الطالب في كوكو لغزاً محيراً، ولا يجيب على أسئلة من نوع لماذا هاجر من أزفون إلى أعالي سيباعو؟ ولماذا اختار كوكو على أزفون وعلى زاوية سيدي منصور لدى بني جناد؟ لاسيما وأن تأسيسه للزاوية حديث على رباط تميزار، مع أن الوثائق تجمع بين معاصرتهما فيما بين 1618. 1644... ولكن مواقف الشيخين مختلفة تماماً... ويتجلى ذلك من خلال علاقاتهما بالإمارة، من ناحية، وبالسلطة التركية من ناحية أخرى.

ومن خلال الحركة الطرقية النافذة إلى أعماق القرى والجماعات خارج وطن الإمارة، كبني جناد وبني يراتن وغيرهما. فأبو يعلي الزواوي يؤمن بالكرامات والخوارق وينكر الشطيح والقيام في كتابه تاريخ زواوة...

علاقات سيدي منصو بكوكو وبالأتراك

في رسالة لعمر بن القاضي، رابع السلاطين من الأسرة، عرف بني جناد بالأحلاف... وكلمة الأحلاف قد تعني الأنصار أو الأصحاب ولكنها لا تشمل معنى الرعايا أبداً.(7)

فخضوع بني جناد حقيقة تؤكدها وثيقة الداوي التي تعترف بأن عرشهم يقدم واجب الضيافة (اللزمة) في سوق الأحد (الخميس سابقاً)... متحملين الإنفاق على السلطان (هكذا) وعلى جيشه الكثير- وهذا ليس أسلوب الرعايا أبداً!.

كما يتكفلون بعلف الحيوانات، وتضيف نفس الوثيقة، في تذمّر بليغ!.. أن هذا السلطان المستبد يقوم في كل صائفة باحتجاز بغالهم وحميرهم، من أجل نقل مستحقات الغرائم واللزمات ومن أجل تسخيرها لخدمات كوكو.

الواضح من هذه العواطف الصريحة. هوأن محالفة بني جناد للسلطان - كافة زواوة- هي ولاء إداري سياسي قبلي... يخضعهم لمختلف الغرم والأعشار، ولكن الوثيقة تؤكد أن تحصيل ذلك يتم دوماً بواسطة جيش كبير، يضاعف عبأ تكاليف الحلفاء العادية بنفقات إضافية مرهقة، وشأن السلطان، في ذلك شبيه بالمحلة التركية تتشكل من 20 خباء.(8) أما الرسالة التي بعث بها نفس الأمير للملك الإسباني فيليب 3 في جوان 1603، فتوضح أن الأمير يملك محطات ساحلية عددها (150) وقد استحدث جيباً بحرياً للإنزال والأتجار. ولاستقبال وضمان الإتصال بالإسبان بحرياً، ويقوم على حراسة المرفئ الطبيعي 200 جندي. وأوضحت المراسلة أن واسطة الإتصال يتولاها (الرقاص) أي البريد. تفصح المراسلة على تردي العلاقات مع بني جناد، وتؤكد أن ذلك كان من جراء نكث الأحلاف وعلى رأسهم سيدي منصور، لعهد قطعوه على أنفسهم، عنه لم

وعدوا بالأمان لحامية الإمارة. وضمان استقبال الدعم والحامية الإسبانية الموعودة، في سبيل التخلص من الأتراك المتواجدين فوق تراب زواوة، وقد أحصاهم في الرسالة بـ 8000 جندي بين الإنكشارية والأندلسيين.

تواجد يؤكد وقوع حرب متواصلة بين الأتراك وكوكو. لا سيما وأن العلاقات تتسم بالتوتر والتردّي أكثر مما تحمله من صداقة.

إلا أن موقف المرابط وحلفه جاء نقيض الوعد المقطوع، إذ قام بنو جناد بإحضار الأتراك بعد إعلامهم بما يدبره الأمير عمر بن القاضي مع الإسبان، وبمشروع الإنزال. وافتضح المكان والزمان ووفق الأتراك في الإغارة على الحامية الإسبانية التي يقودها رجل دين يعرف البلاد (ماتيو). وتمكن الإنكشاريون من القضاء على الحامية، بعد معركة طاحنة، مع حراس الأمير الذين لم يصب منهم غير 20 بينما قضي على أكثر من مائتي تركي.(9) ومهما كان أمر الخسائر. فقد سجلت أن سبب فشل مشروع الإنزال الإسباني بالمرفئ الطبيعي (جاميجوط) الغير معروف، والذي يبدو أنه تحريف لإسم (تامقوط) لدى بني جناد، وهي بعيدة عن البحر، أو أن الإسم عبارة عن تحريف لغوي إسباني لأقمون... الجيب الطبيعي القريب من أزفون، والمحمى طبيعياً واستراتيجياً من كل اعتداء متوقع، وهو ضمن حدود عرش زرخفاوة الجناديين.

وإذا اعتمدنا على تصريحات الرسالة، فإننا نحصل على معلومات ولأول مرة- يفيدنا بها عمر بن القاضي بأنه يملك أكثر المحطات الجزائرية (150) ساحلية تجارية وهامة، وهو يعد بها الملك الإسباني. كعربون، مقابل الحلف المأمول بينهما، وكتعويض للإسبان مغري، حتى يقدموا على إمداده بجيش يناصر قواته التي صرح بأنها تعد 8000. وما يهمنا من هذه المراسلة هو فقط التصريح بدور المرابط - مرابط الجهة - وهو سيدي منصور، في هذا التاريخ، والذي كان معادياً للتقارب القاضوي الإسباني، ولم يكتف بموقف المعاداة بل

عمل بكل الوسائل، بما فيها استقبال الجيش التركي لدى بني جناد وبتحريض السكان في كل العرش، وفي السوق ضد سلطان كافة زواوة. الذي نعته داوي بأنه (جائر)... قاهر!

أقوى رد صادر عن المرابط منصور، هو رفضه علانية استقبال الأمير عندما حل بسوقهم (الأحد)، وكان بخلوته، لم يسر لمقدمه. ورغم علمه بقدوم السلطان فقد رفض تكليف جمعه بالقيام بواجب الضيافة ومنعهم من التأهب لحسن استقباله عند مدخل السوق، كما جرت العادة! وهو موقف المرابط،أملاه على جموع عرش بني جناد في يوم السوق. فلم يحرك ساكناً جماعته ومريدوه وطلبته وأعيان عرشه، وذكرت الوثيقة أن أعيان بني جناد لما علموا بقدوم موكب السلطان، واستشاروا سيدي منصور، في القيام بواجب الضيافة، فمنعهم من ذلك!... وقال لهم لا نذهب إليه بل هو الذي يقدم إلينا.!.

حادث خلدته ترجمة ذاتية للمرابط، كتبها داوي أحمد من آل يوسف كما يسميهم أبو يعلي.

تنص على أن الواقعة جرت في سنة 1028 هـ أي 1618م، ومع هذا الموقف الغير مألوف، فقد اقتضت الحكمة أن يكتمها الأمير عمر بن القاضي في نفسه، ويسعى هو شخصياً وموكبه نحو المرابط ومجلسه! ويفتح معه محادثة هامشية، مصطنعة، لا تشير من قريب أو بعيد إلى (الحادثة) التي هي عبارة عن عصيان معلن وصريح، وتأليب للأحلاف في يوم سوق... موقف ينبع من طاقة عمر بن القاضي وحنكته وخبرته، وقدرته العجيبة على مواجهة الطوارئ مهما كان عنفها، إذ كان محتملاً أن يتأثر غيره، ويشعل حرباً في السوق بأدنى تصرف يسيء به لجانب الولي... ولكن الحكمة الأميرية تقتضي من رجل مثل (عمر) بما يعرف حوله من التراث، خاصة في الكلام والخطاب معه... التحكم في الأعصاب ولو بامتصاص ماهو إهانة مقصودة!.

وكانت محادثة النديين جافة لاتخلو من دهاء رجل السياسة... فالمرابط يبادر السلطان بالسؤال، كما لو أن شيئاً لم يحدث بتاتاً قائلاً: ماذا أعجبك في الجزائر؟.

الأمير: كل شيء يعجبني في الجزائر...

المرابط: أما أنا فلم يعجبني سوى ذلك السائر في الطرقات يقول للناس، بالك ياغافل... بالك ياغافل؟!

هي الرسالة الملغمة التي أوحى بها المرابط للأمير. وهي تعبر عن خفايا كثيرة، وتعرب عن موقف سياسي أخلاقي قبل أن يكون تعبيراً عن ذات أو نوايا شخصية.

تحذير أحس به الأمير!. وتؤكد الوثيقة أنه تأثر واغتاض له، ولكن ابتلعها على الرغم منه!.

وتضيف الوثيقة أن المرابط قد بعث للأمير بعد منصرفه من السوق من يعلمه بانقضاء أجله... أما الأمير فقد امتقع لونه وردد في سره... لاحول ولا قوة إلا بالله!. ولم تمض غير أربعة أيام حتى ضربه أحد الأعداء بالرصاص.!

توضح الوثيقة بالضبط والدقة والأسماء والتواريخ والوقائع وحتى تعابير ومقاطع الحوار الملغم، وهي تنجلي على العلاقة بين المرابط والأمير، وتحولها من التحالف والولاء إلي العصيان والتنكر للسلطان.

تحالف انتهى بجدال ملغم، وبوفاة عمر بن القاضي فعلاً، مالا يبرئ ساحة المرابط من دم الأمير، حتى وإن كان ذلك من علم الغيب!.

وليس مجرد تحليل للموقف السياس وللأحداث، أو هو حسن دراية بالميدان وردود أفعال المؤمنين الذين يحتك بهم عن قرب، أكثر من احتكاك الأمير برعيته وبأحلافه. وكل المجريات والحبكة توحي بأن المرابط قد أعلن عن موقف من نوايا سابقة. وأنه عالم بالمؤامرة المدبرة مع الإسبان الكفار... وأن النظرة للأمور متباعدة جداً بين رجال الطريقة ورجال السياسة، فعدوا العدو صديق مثلاً مبدأ قد يمتطيه عمر بن القاضي، لكن المرابط منصور لا يرضى أن يفهم منه أي معنى خارج الطرح الإسلامي، فعدو العدو الكافر عدو...

الشخصية السياسية للمرابط منصور

موقف صريح معلن عنه بوسائل التحريض وإعلان العصيان، والتبني الشخصي للمعارضة ضد الأمير. وقبل هذا التاريخ بعشر سنوات وقف نفس المرابط مع عرشه وأتباعه وطلبته موقف تخاذل من نوايا السلطان ومشروع التحالف مع الإسبان من أجل الإنزال. الوارد في رسالةعمر بن القاضي بتاريخ 25 جوان 1603 موجهة للملك فيليب الثالث، وهي الوحيدة في هذا المنزلق السياسي والعسكري.

ولكن عمر بن القاضي مشهود له بهذه التقاليد منذ أن كان يقوم بدور الواسطة والرسول عن عمه مع حاكم بجاية، وهو نفسه المذكور في الرسالة بأنه مبعوث سامي للإمبراطور بتاريخ دوجنبر 949هـ.

وفي رسائل عديدة وصفه السلطان محمد بن القاضي خليفة حسين بن القاضي (ثالثهم في الأسرة)... بولدنا وقرة عيننا..! منذ 1535م عهد خير الدين وابنه حسن، لأن إحدى المراسلات تعلمنا بمغادرة خير الدين الجزائر تحت ظروف الحرب في الحوض الشرقي للمتوسط وشماله حين تسجل المراسلة تعاوناً ودعماً مع ملك فرنسا...

وفي موضوعنا ومجال اهتمامنا يبدو لنا سيدي منصور إذن عكس ماعرف عنه من المرابطية والكرامات ورجل الدين فقط، بل إنه النموذج الفريد والأهل لرجل السلطة والسياسة، وقائد جموع الأتباع والأحلاف من المؤمنين والتلاميذ والطرقية (الأخوان) على السواء. وعلى العكس مما صدر عن المرابط منصور المنيعي. كان معاصره وبلديه سيدي على بن الطالب عديم الدور السياسي، غريباً على كل الأحداث والملمات التي عصفت بسلطان كوكو، أمام مرأى ومسمع منه...!

ولم يسجل التاريخ، المتواتر فيه والمكتوب، أن وقف موقفاً معادياً من أسرة ابن القاضي، أو كان له أي موقف سياسي إطلاقاً باستثناء مواقف الإصلاح وبذل كل الجهود لتفادي الفتن.

وماهو موثوق كتابياً وبواسطة الرواية هو أن لابن الطالب موقف واضح إبان عودة الأمير الشاب أحمد (التونسي) بْن عمر بْن القاضي... بهدف الإنتقام واسترداد ملك أبيه... وماكان من الولي الطامة... إلا أن يحول دونه ودون نوايا الإنتقام، وإراقة الدماء، ويؤثر عليه حتى يعدل عن مشروعه تجاه أعمامه من الحزب المعارض لأبيه.

وتقول الرواية المترجمة أن الأمير عدل عن الحرب، وقام بتصفية تركة أبيه. وهجر كوكو إلى أورير ثم أشلام لدى بني غبرين. وهي أحدى الروايات الأكثر احتمالاً. والمترجمة عن الأسطورة اعتماداً على شهادات أدلى بها كبار كوكو ومرابطوها ، في مقدمتهم سيدي يذير بن ابراهيم.(10)

الطرقية وزاوية سيدي منصور تيمزار:

إنها من مؤسسات أوائل القرن 17 م، وربما أواخر 15م، رباط علم ودين، بها خلوة الولي، التي كانت في أول مقامه (خيمة) عند الموضع المسمى اليوم الحمام. وبه مدفنه ومدافن الأسرة كلها .

زواية تقوم على تدريس القرآن وعلوم اللغة والدّين، وهي توفر الإقامة والتكفل بالطلبة الآتين من كل أصقاع الوطن.

تسيرها أسرة هي التي تحتكر الإرادة وتنظيم الفئ والعوائد والزردات والصدقات الموسمية "والسنوية، وللمدير مطلق الصلاحيات في التسيير وقبول الطلبة أو نفيهم بحكم انحداره من أصل الولي.. ويتحكم في البرنامج المدروس بالزاوية.

مع وجود مجلس الأعيان لكامل العرش (بني جناد) فوجوده استشاري، وللإستعانة والخدمات التي يتطلبها المقام، ويتكفل بها دوار إيزرازن وقرية تيمزار(11)... في حين يلاحظ غفل وتهميش جماعة (ايمنعيين) من هذه الأنشطة وفق سنة الإعفاء واحتكار النفوذ... وهي تختلف جذرياً عن طرق وهيآت تسيير زاوية سيدي عبد الرحمن، ولم يحصها ابن زكري من ضمن الزوايا المسيرة ذاتياً، بل من الزوايا الخاضعة للأسر المرابطية المتوارثة.

سيدي منصور مزار إلى جانب أن المقام مؤسسة تعليم ورباط من أربطة الحركة الإخوانية(الطرقية) جماعة بني جناد، ولعله من الوفاء بالفضل لذويه أن نذكر أنه من أبرز الشخصيات المؤثرة في هذه الحركة شخصية الحاج (سعيد-الماوشتون) ومع أننا لا نعرف القليل عن حياته فضلاً عن الكثير إن كل القبائل بدون استثناء، يعرفون هذا الرجل الصالح من خلال شعر عذب ديني، يقتحم القلوب بعذوبة حيناً، وغالباً برهبة لا يعادلها سوى شعر (مع أومحند) الشبيه بالحاج سعيد، وهوأيضاً من ألمع عناصر الأخوان الطرقيين...(12)

وشعر الحاج سعيد هو معين الطرقية (الغير مدروس) وهو مدائح وأوراد وحكم.ترغيب في نيل الجنة وترهيب من هول عذاب القبر ووحدته والنار. إنه الغذاء الروحي للمؤمن من خلال القرن 20، وفوق كل هذا تردده جماعات وأتباع وأخوان بألحان عذبة في مواسم الزردات وفي الحضرات وفي المآتم وذكريات (الأربعينية للأموات) ومهما تكن غرابة الملاحظة التي سجلناها نقول:

إن القبائل أشد تأثراً إلى حد الهيجان، ودخول الحلبة، وأعمق واقعاً وأقوى أثراً، إزاء الذكر من كل أحوالهم (العامة) عند سماع تلاوة القرآن، وخطبة الجمعة. وربما كان السر في كل ذلك أنّ الحاج سعيد ومح أومحند يسلبان القلوب والأرواح، بينما يتجه الأئمة والشيوخ إلى العقول فقط... وأي دعوة إصلاحية

لا تقوم على العقل والروح والقلب، دعوة علمانية أكثر مما هي دينية... وما أعذب وأروع بيت يردده جماعة بني جناد:

ياأخوة كيف يكون الحال يوم وحشة وغربة القبر...!؟

مدائح وأراجيز بالقبائلية المعربة الرائعة الحبكة الشعرية والصناعة على طريقة الأبحر... بالصدر والعجوز والقافية. وبالرغم من أن ثقافة الحاج سعيد محدودة جداً، حسب شهادة ولده فإن ثروته اللغوية العربية الفصيحة (السلسلة) وقدرته على صياغة القوافي تضعه في مصاف المتنبي وابن زيدون، وفي مستوى ابن ابراهيم وابن مسايب ، وألمع نجوم الملحون.

والحاج سعيد قبل شاعريته وبعدها، تلميذ زاوية سيدي منصور ولازاد له هام! في غير حفظ القرآن ونصيبٌ متواضع من حفظ علوم اللغة في المتون من الأجرومية والألفية وقطر الندى... وهو من فصيلة الشيخ الشريف الجنادي، مدرس الزيتونة المتوفي 1783هـ، وآل رزخفاوة من ابن المبارك اعشابو، ومحمد أمزيان ابنه وغيرهم كثيرون...(13)

ولدى الإخوان يقولون: إن من أراد الله فعليه بمدائح الحاج سعيد ومن أراد الدين فعليه بحكمه ومن أراد الحياة الفضلى فعليه بهما معاً، ويكفيه فخراً أن في القبائل كلها لا تردد إلا أفكاره ومدائحه في الملمات والأعياد الدينية والزردات والنذر...

إمّا السند التاريخي لهذه الطريقة فيلخصه الحاج سعيد في البيت التالي:

إخواني شيخنا سلطان وردُنا من محمد بن عمر الرحمن! (بوقبرين).....

وهذا ما يضعُهم من الرحمانيين، الطريقة الواسعة الإنتشار في البلاد...

قانون زاوية سيدي منصور:

للزاوية قانون مختصر، بحكم خضوعها لرقابة مباشرة من مدير دائم الحضور، من الأسرة. ولكن جوانب الحياة الطلابية، تتطلب أخلاقاً وتربية وانضباطاً (أوليات) وفق معايير وعادات درجت في تراث حركة الزوايا بالقانون وقد نقل عنه كل من هانوتو وبوليفة بعده نماذج:

ويحصى الأول اعتماداً على بروسيلاود معمرة سيدي منصور بن جناد من بين المعاهد القانونية ضمن 17 معمرة تدريس القرآن. وأوضح برنامجها والإنتساب إليها عادة، بعد إنهاء الدراسة الإبتدائية بمعمرة القرآن القروية...(14)

أمّا الدراسة بها فتشمل التعليم الأساسي، إلى جانب القرآن عكس المعاهد المتخصصة في دراسة الشريعة. أما المواد المدروسة في النوع الأول معمرة القرآن والتعليم الأصلي فهي:

- القرآن وشرحه والروايات السبع لتلاوته وضبطه ورسمه
- الأجرومية أو مادة القواعد للشيخ محمد بن داوود الصنهاجي الجروجي (القادري الأخضري)...
- الألفية لابن مالك وهي 1000 بيت نحوي، مجموع قواعد النحو.
- شرح مختصر (قال صادي) حساب المواريث على الخصوص.
- الجبر وعلم الميقاة (Astronomie) لمحمد السوسي المغربي
- الأشعار والبلاغة

فتتم عن شيخ وحيد الكرسي أو شيوخ متعددين، عملية التدريس، ويتداول مقدموا الطلبة، علماً وتمكناً وأقدمية عليه، وتعتمد الدراسة على الحفظ الحاسم والمطلق، لكل مايملي ويكتب على اللوح. ولا تربي الملكة اللغوية عادة هذه

الطريقة. ومهما كان المقام بالمعمرة فالعجز اللغوي يظل معضلة الطلبة والمشايخ، واقع نتج عنه الإسفاف والسطحية الدينية وعدم التمكن من الشرائع، بتقوقع مزمن على سنة اجترار الشروح ومختصرات الشروح والتحشيات في قالب من العناوين البراقة، بلا فحوى ولا تجديد...(15)

ثقافة أدت بعد عهود الظلام إلى ميلاد تركيبة علماء وأشباههم، جاملوا الإنحراف الديني، وصمتوا لتزكية مواقف الأعيان وقيادة الجهلة وتماديهم على الفتوى بدعوى العرف... حتى وإن اصطدمت أحكام العامة الغوغاء المتسلطة مع أحكام القرآن والسنة، كما في أسقاط ميراث المرأة سنة 1748، وفي بعض حالات الطلاق والإرجاع.(16)

مراتب الطلبة والصفوف التربوية:

- الحجارون أو الهجاءون- مبتدئون...
- معيدوا المساء.
- معيدوا الصباح.
- الطلبة السباقون... وهم الاخذون عن الشيخ كل صباح، ليعيدوا للصفوف الدنيا بواسطة المدولين (المرددين السمّاعين) وللمعيد مواده وحصصه. كما لمعيد المساء مجاله واختصاصه وحصصه. ولكن الدروس كلها تكرر أربع مرات خلال 24 ساعة.(17)

يساعد كلاً من الشيخ وسباقيه (معيدون) طلاب ممتازون يعرفون (بالدوالة)... يتلون التلاوة بصوت مرتفع عذب واضح لنصوص ومقاطع من سيدي خليل مثلاً، عن الشيخ الذي يتبعها بتعاليق وشروح، حسب الشراح المختلفين،(18) وهذا ما يمثل بعداً ثقافياً عرف فيما بعد بطريقة التحليل والنقد. لأن الشيخ يقدم الرأي والرأي الآخر، من اختلاف المذاهب وأراء الفقهاء إلا حيث يسود الإجماع.

والمدة التي يقضيها الطالب في الزاوية عادة، تتراوح بين 5 إلى 10 سنوات حسب الظروف والإستعدادات والمؤهلات الخاصة وهي. تقطع سنوياً بعطلة وحيدة، تدوم من شهر إلى شهرين...ولكن المعمرة لا يمكن أن تبقى خالية من الطلبة، فهناك دائماً من يقوم على خدمتها، وعلى حفظ شؤونها وشؤون المؤمنين والزوار الوافدين في كل المواسم، لاسيما الأعياد وموسم الربيع (ماي كما في سيدي منصور)...

يشبهها الأوربيون بالأديرة، ،وليس بالمدارس ونظمها التربوية، منظور مستمد من الإلتزامات التي تفرضها المعمرة على الطالب والتلميذ.

إنها ملكية خاصة وفي حال الإغلاق يحتفظ مالكوها بكل أوقافها وأحباسها وفيئها من الصدقات والأعشار، وهي غير مبيعة ولا مرهونة ولا مقتسمة...[19]

التسيير في زاوية تميزار

وفي سيدي منصور كما في غيرها يتداول التسيير بها ورثة المرابط وآله من آل يوسف وأيت الحسين المنايعة... عكس وضع زاوية الأبلولي. وهذا لا يعني أن المالك يحتكر كل مجالات التسيير، بل يترك حيزاً ومهام التسيير اليومي، وكل مستلزمات الأشغال والأعباء والتنظيم الداخلي والرقابة المباشرة على الطلبة. الذين هم بدورهم ساهرين بصرامة على إنجاز الدروس في أوانها وشروطها القانونية والتربوية، وتحت إشراف (قيمين) يتم جمع وتخزين وصرف الموارد والأرزاق للزاوية.(20) ندهات.

يحتفظ المدير لنفسه ولعائلته بدور الإشراف والتوجيه والإدارة العامة، كقبول التلميذ أو طرده... ولكن يلجأ دوماً للإستشارة بالشيخ والطلبة، حفاظاً على العلاقة الروحية معهم.

وفي سيدي منصور يشرف المدير على الطلبة، ومعززاً بصلاحيات الشيخ ونفوذ الإدارة، ويكون شيخها دائماً من أسرة الولي وهو المدير معاً.

وكلما كان المالك والمدير غير مؤهل علمياً اضطر إلى الإتحاد والوفاق التام مع الشيخ، لأن أي صراع بين الطرفين يفقده. دعم الطلبة.!. لميلهم دوماً إلى التضامن مع الشيخ المبجل، القائد الروحي والمثل الأعلى لهم، وليس الشيخ في زوارة مجرد ملقن بل أنه أب روحي للطلاب، وحتى وإن لم ينتظم في سلك الطرقية يجمع بين امتيازات الخليفة والمقدم، وبين الصفات العلمية، ويقولون أن المدير والطالب «عبارة عن جثمان الميت بين يدي الغسال»...(21) للزاوية صنفان من الطلبة: طلبة يؤدون المهام الخارجية لصالح الزاوية وطلبة يلتزمون بالخدمة الداخلية، إلى جانب الدراسة والتحصيل وتتميز منهم فئات ومستويات:

إيقداشن: المشاعة في كل الزوايا، وأول ماينتمي الطالب لهذه الفئة

-**النوالين:** معدوا الأطعمة والوجبات ولوازمها.

- **ترحاية:** يتولون رحي الحبوب وفتل الكسكس..

- **الحطابين والسقايين:** يتكلفون بتوفير الحطب والماء وعادة توكل للغرباء عن الزاوية وخدمتها من الأتباع والضيوف والأنصار.

كما في القرية أو المعمرات الأخرى، تقوم العادة على الإجتماعات اليومية لكافة الطلبة (جمعية المسيرين) ولكنها أكثر خضوعاً لإرادة المالك والشيخ.

يتم تعيين المقدم في الجمعية بواسطة الإنتخاب وكذلك الوكيل المالي، ولكن الأمر لا يتم إلا بتزكية مالك الزاوية، وضمن فئة المقربين والمدربين بحكم الأقدمية والتجربة والمراس بالزاوية. وحتماً يتم وفق هذه الشروط إلى جانب التحصيل وخصال خلقية أخرى.

توكل للمقدم مهام الإشراف على كل مصالح المعمرة تحت إشراف المدير ويساعده الطلبة الأقدمون ـ(كطمان) أو عقلاء والمدة محددة بشهر ثم يخضع المقدم لمبدأ التناوب على السلطة... وهي الديموقراطية التي لم تتسرب لسوء الحظ إلى خارج الزوايا، ولم تتبنها هيآت القيادة والتسيير على القرى والأعراش والإتحاديات أمام غلو واقع الإحتكار والإملاء!.

تحت ضغط عوامل غير ثقافية، وغير دينية، في مقدمتها الجاهُ والسلطان والثراء، والعصبية الأسرية والعشائرية والقبلية.(22)

أما المداخل العامة والمتنوعة والكثيرة للمعمرة، فيتولى إدارتها وأحكام نفقات صرفها، (تموين المعمرة، وبيع المحاصيل الفائض والحيوانات أو المواد الغذائية الجافة والسائلة الأخرى -السريعة التلف- كما يتولى شراء الأثاث والحصر، ويسهر على استقبال الزوار والضيوف، ويعين الطلبة المساعدين).

كلها مهام المقدم والوكيل أو المتصرف المالي، ولكن عند كثرة الأموال والأرزاق تودع تحت رعاية المالك.

فالمقدم والوكيل مسؤلان على تطبيق واحترام القانون الداخلي المورث على الولي سيدي منصور... والمجالس بها قائمة غير أن سلطانها محدد بوجود مدير متوارث غير خاضع للإنتخاب بل هو مبايع...

- نقد وتوضيح -

تقول الوثيقة المرجع لنا:

إن سيدي منصور نزل عندنا في القرن 9هـ. وهو مالا يهون التسليم به:

لأن معاصرة المرابط منصور للسلطان- كوكو وكابفة بلاد زواوة- عمر بن القاضي، حسب تعبير الوثيقة نفسها... يعيد الولي إلى القرن 17 م- الحادي عشر هجري...

إذ أن الواقعة التي ذكرها داوي أحمد. حول مقتل السلطان القاهر بأربعة أيام بعد لقائه بالمرابط منصور في سوق الأحد- أي سنة 1618م الموافق (29-1028هـ) هي بهذا كفيلة بإزالة التناقض في الوثيقة بما يدل فقط على الذاكرة التاريخية المفقودة، وتقريباً انعدام التسجيل التاريخي في القبائل.. أو أن عمرو المقصود عند داوي ليس هو السلطان (القاهر)... وربما هو جده المعرف عند أبي رأس الناصري بعمر بن القاضي، مؤسس زاوية كوكو... وهو لم يكن سلطاناً، مع عودته للقرن العاشر هـ، وليس التاسع كما ذكر المترجم للمرابط منصور...(23) أما القرن 9 هـ، فقد كانت فيه البلاد تابعة لبني حفص، أو هي مسرح لحروب بني زيان، وبني حفض أو بني مرين ضد الجميع وحسب الوثيقة:

كان من أكابر الأولياء يفزع الناس إليه، كان مجاب الدعوة، كثير العبادة في الخلوة (...) صاحب كشف رباني (...) فلا يتكلم إلا بالحق السني، لا

يخيب!... هذه أوصاف الطرقيين والمتصوفة السنيين، لأن تعابير كالكشف والخلوة والحق السني وأكبر الأولياء، والكرامات، مجاب الدعوات، كثير العبادة كلها من تراث المتصوفة وقاموسهم الوردي، يستوي فيهم في هذا العصر الصوفي التقي واليودالي المشعوذ، والمدعي المتصنع! وقد فصل في الأمر عبد الكريم بن الفلكون في منشور الهداية، وله رأي صريح حول المستوي الديني والطرقي في زواوة وقد نسبه أبو يعلي إليها... (24)

وتضيف الوثيقة أن أولياء العرش وهم أمناء القرى سلموا له الأمر- يخدمونه ولا يخالفونه أبداً، بل يأتون إلى مشورته في جميع المهمات والنازلات في هذا العرش *

وهكذا يبدو سيدي منصور نسيج الأمير والسلطان والقائد الروحي، ذا مناقب... شيخ فاضل، محل الإحترام والتبجيل، ومكمن الثقة في عرشه، له سلطان ديني ودنيوي واضح، (أبوية روحية) على أمناء كامل العرش وله أيضاً براهين ساطعة كما سيأتي... ولهذا فإنه يرهب ويسعى للقائه، أو ترغب بركته... أو يفرض لقاؤه في حال المصالحات والتقاضي، والفصل في النازلات والوقائع الإجتماعية والأسرية وغيرها...

مناقب سيدي منصور:

لا بد من التذكير بمرور سيدي منصور عابداً مختلياً في خلوة (تيزيبرث) بايلولة أومالو. وانتقاله لقرية إيعكورن بمكان عرف (جحيقة)..! وبسبب من حيوانات أتباعه وضيوفه وزواره (مايؤكد الأربعين منيعي) حدث تذمر سكان إيعكورن، وطلبوا منه مغادرة البلاد، ودعى عليهم... وحسب داوي والمتواتر في الرواية هذه أولى براهينه وكراماته...! ونزل أول الأمر في موضع يقال له (جيجيقة) حيث مكث سنة وحظي بأقبال شديد لجموع الزوار الغفيرة المتبركين والعابدين وربما (..)....

نزل بقرية تيمزار وكانت يومها (غابة) بمكان الحمام والخلوة الحالية وتحت رجاء ملحاح للقرية نصب (خيمته) للعبادة وأقبل عليه بنو جناد يزورون ويتبركون...

لمّا تيقن من صدق مشاعرهم. استوطن البلد وتزوج وخلف أولاداً وكل ولي هنا في هذا العرش إنقاد له وخضع!...

ومن مناقبه أنه دعى علي أن من يغير القانون فإنه يهلك وتظهر فيه البراهين(...) أمّا بموته أو بحبسه أو بتخبيل عقله أو موت ولده...[25]

وحسب وثيقة داوي فزواجه واستقراره متزامن مع خضوع بني جناد (كأحلاف) للسلطان، كافة زواوة في ذلك الوقت... والذي كان حكمه قاهراً.

ومن عادته أن يأتي هو وجنوده إلى سوقنا الأحد (الخميس سابقاً)ويحمل البغال والحمير من العرش يستغلها في نقل زرعه وخدمته...

ويلزم العرش بالضيافة تصل إليه في ذلك المحل بالسوق، وبالعلف الكثير لخيل جيشه...

ومن مناقبه ما جاء في رواية الداوي، لما تتضمنه من حقائق نادرة في جوانب سياسية وإدارية، تضفي معلومات عن الامارة أو مملكة كوكو، لاتتوفر عليها كل المراجع المخصصة لها.

ومنها واقعة جدال سيدي منصور مع السلطان نفسه، ورفض القيام بالضيافة والحيلولة دون قيام أعيان عرشه بذلك(...)

ويورد أن دعوى الولي تسببت في تشتت أمر الخلافة بعد مقتل السلطان عمر بن القاضي، ولم تنعقد مدة طويلة، وهذه حقيقة تاريخية، فالمقتل أرغم الزوجة الحامل على الفرار إلى الجزائر ومنها إلى تونس ولم يعد ابن المقتول حتى سنة 1634 وهو شاب يافع...

وحتي عودة الإبن كانت انبعاثاً للملكة لكنها في غير كوكو، بل في بني غبرين، بعد أن تخلى الإبن العائد على بلد أبيه لما تشعره به من موجبات الإنتقام، ولكثرة الحزب الحضورخصم أبيه...

وتؤكد الوثيقة أن الأعراش في كافة زواوة بقيت مهملة سائبة، وتذكر اسم القاتل (أحمد بوختوش) سنة 1618م.

ونتج عن الحادثة احتكام الناس للعلماء والأولياء اختياراً لا قهراً. حتى خرج الترك من الجزائر واجتياحهم بلاد القبائل... (حرب الذباح) المشهورة في التاريخ!(26)

وعنها يقول: طلبوا من بني جناد قطع الأشجار في ثمقوط حكم أزفون وامتنع العرش، ماتؤكده مراسلات الداي للمرابطين سعياً منه لاستصدار الفتوى شرعياً بأحقية السلطان ولي الأمر استغلال الغابة لصناعة السفن وماتستلزمه حرب الكفار والردة.

وقع انفتال بين بني جناد والترك، وتسجل الوثيقة أنهم قهروهم وأزاحوهم إلى الجزائر. وهي حرب لم يعمر إلى عهدها الولي منصور..(27) ولكن الترك حاولوا الإقتراب من زاويته، وأحراقها ولما لم تحترق، وشاهدوا منها ثلاث مدافع تندفع في وجوه فلولهم، فسألوا عن المقام، فأجيبوا بأنها خلوة المرابط البركة سيدي منصوْر.... وحسب وثيقتنا دبّ الطاعون في أوساط الجيش الإنكشاري، وقضي على الكثير منهم، فرجع الباقي إلى (محلة الجزائر)...

ومن المناقب والكرامات أن الله أرسل على المعتدي الذي أحرق الغابة المحيطة بالزاوية، أرسل عليه الصاعقة، ونجت القبة...

ويشهد داوي أنه سأل أمناء وكبراء القرية عن عادات القبائل، فلم يجد شيئاً منها. وإذا كانت القرية تحتظن زاوية ومرفق العلم، فما بالك بالقرى النائية التي لا تعلم ولا تعلم، حتى أصبح العلم مبتذلاً مستحيل المنال...

ملخص قانون الزاوية:

الزاوية هو مؤسسها لتعليم أولاد العرش القرآن والأدب، وبالمقابل أعانه العرش بجميع الأقوات للطلبة... وجعل للزاوية قانوناً ضابطاً وفيه:

- لا فرق بين الكبير والصغير ولا بين العظيم والحقير
- مراتب الطلبة حسب الأصناف الأربعة

(أ) العليا للأكابر العقلاء، المقدمون مسؤولون على تطبيق القانون وحرمة النظام وعددهم ماين 10 و15 أو أقل... وهم المقدمون يتناوبون (التقديم) شهرياً... وحكمهم عام نافذ على جميع الطلبة، كباراً وصغاراً... الأخطاء أنواع منها مايستوجب التغريم بالمال كحالات:

- التلفظ بالقبح وفاحش القول- نصف دورو
- اللعب في الجامع- فرنك ونصف صولداي...
- المتلف للأرزاق والمتاع والغاز يغرم ما أتلفه.
- المتغيب عن الجمعيات والحفلات (حضرات)يغرم 5 صولداي أي (4/1 فرنك)
- المتخلف عن أداء شغل موكول به يغرم فرنك لقط الزيتون نقل الحجر
- الشتم نصف دورو
- الماشي في طريق القرية من غير حاجة عامة ووفادة يعطي (5 فرنكات).
- التكلم في الإجتماع بلا إذن يستوجب دفع 8/1 فرنك
- كل الحقوق يستوفيها المقدمون ماعدي النفي، وكل رفض وعناد يؤدي إلى اجتماع عام للمقدمين فاتفاقهم حاسم واختلافهم يحول للشيخ حسمه... وهو مع مجلس العقلاء الأربعة. وتنص مادة على أنه يتشكل من المرابطين العقلاء

- الشيخ وصي ومستشارهم وأمره وفاقهم يحضر الخصم المطالب بالغرم والمقدم الشاكي أمام الشيخ وكذلك الشهود.

أقصى العقوبات:

- أمر النفي مرهون بالشيخ ومجلس العقلاء الأربعة
- من سرق ينفي
- من هم بالضرب بواسطة الحجر ينفي...
- من استل موسى للطعن ينفي
- الزاني ينفي وتحرق أمتعته وفيما بعد يكتفي بالنفي فقط.!
- الضرب مع أهل القرية يوجب النفي والخصم يغرم 5 ريالات x (2.5 فرنكاً)
- العراك بالضرب يوجب النفي
- من تكلم مع إمرأة خارج الزاوية والزيارة ينفى ولا يرجعه أحد...

الطبقة الثانية من مراتب الطلاب:

مقدمون مكلفون بالقيام على القراءة والصلوات في الأوقات وفي الصف (جماعية) وهم من 6 إلى 10 أعضاء، أكثر أحكامهم تسري على الجميع مشاهرة أيضاً...

- بعد الأذان يسبق المقدم إلى المسجد لاحصاء المتأخرين والغائبين.
- ويعاقب المتغيب بحمل الماء أو الطهو والخبز والفتل.
- الغياب عن الحزب الراتب، مع حفظ الحزب، في أوقات الظهر والمغرب
- التكرار بعد الحزب المغربي حتى العشاء (الوجبة)... ثم العشاء
- القراءة الجماعية والفردية في المسجد بالمصباح والمتغيب يعاقب بالخدمة.
- المتكلم في الصف عند القرادة يعاقب بالخدمة

الطبقة الثانية من (الوكلاء)

عددهم أربعون يتوكلون بالمشاهرة ونصف الشهر. مراقبة القدر والطعام والماء والماعون والزيت والملح. وهو يحصي النقص والفائض بحسب الحاضرين والضيوف ومن مهام الوكيل المناوب تحضير الطعام في وقته صباحاً ومساء وعشاء...(28)

والوكيل مسؤول على القداديش الصغار يقضي بهم حوائجه وحوائج الطلبة من كنس ، وأغطية وحمام ورعي البغال، وتدبير أمر الطبخ والسقي. والوكلاء الصغار هم الرسل إلى القرية. لقضاء حوائج الزاوية.

عند الغداء والعشاء ينادي الوكيل (طال) 3 مرات إيذاناً بالتناول...لا يشرع في الأكل حتى يؤذن لهم بقول بسم الله...

السكوت أثناء الأكل، والمخالف يعاقب بالخدمة

والقداديش هم الطبقة الرابعة ومدة قداشيتهم عام أو عامين ويمرر الكبار إلى الطبقة العليا. بعد عام فقط تجاوزاً...! خدمتهم رعي البغال، كنس المرافق، قضاء الحوائج، القيام على الزائرين حراسة الديار والمخازن.

تعليق على القانون:

إنه شبيه بكل القوانين المعروفة في الزوايا، فهو مشخص يتصل بالفرد الفاعل مباشرة، فمن تكلم أثناء الصف يغرم... وينقسم إلى قسمين فقط:

1) الأخطاء الهينة المستوجبة للتغريم وهيآت التنفيذ الأربعة.

2) الأخطاء الفادحة الموجبة للنفي وهيأة التنفيذ الوحيدة المؤهلة بإصدار الحكم إنما هي مجلس العقلاء الرباعي، تحت إشراف الشيخ وأقسى عقاب من هذا النوع نفي الجاني وحرق ملابسه وأمتعته.

- دور الشيخ هام، ليس بمجرد ملقن، بل مستشار يرأس المجلس الرباعي وعلاقة القانون بالمحيط القروي وبالمرابطين، ومنهم العقلاء الأربع وطبعاً من أسرة داوي (آل يوسف عند أبي يعلي) والعلاقة بالرعية ولاء وخدمة.

القانون من وضع سيدي منصور، ومثل سيدي عبد الرحمن الأيلولي دعى على من يعد له أو يغيره بالطامة الكبرى والمصائب عليه وعلى ذريته. والقانون يشير إلى تخصص دقيق في صلاحيات الطبقات الأربعة فالمقدمون الأوائل مشرفون عن النظام العام والأنضباط، ومتطلبات الحياة العامة داخل الزاوية المزار...

المقدمون القائمون على سير القراءة والتكرار والصلاة وحزب الراتب وإنجاز المهام، وحضور الإحتفالات (الذكر) والإجتماعات.

- الموكلون. متصرفون في الشؤون المالية والمادية أرزاقاً ومحروقات وأواني وعتاد ومخازن وإطعاماً وإكراماً وإيواء للزوار والضيوف... في نسق دقيق يشرف عليه (مراقب القدر) أو الأكل عند الجماعة.

- القداديش، كما في غير هذه الزواية خدمة ومساعدوا المتوكلين يقضون الحوائج ويرعون البغال ويسقون، ويقومون بحراسة المخازن.

هذه الطبقة الأخيرة لا يشرف عليهم المقدمون أو مكلفون آخرون. ولا يصرح بذلك القانون، بل يجعلهم خاضعين للطلبة من الطبقة الثالثة والجميع تابعون للمقدمين الأوائل أو (الطبقة العليا) من مجلس الإثني عشر.

عادة التناوب على المهام والمسؤولية بالمشاهرة عامة في كل الزوايا.

لا يبدو أي تجديد في هذا القانون، فهو نسخة طبق الأصل من قوانين سيدي عبد الرحمن الأيلولي الأكثر دقة وضبطاً... فالمسؤول عندهم بصريح القانون مقدمان- واحد للنظام والإنضباط وسير الدروس سيراً عادياً وهو مقدم العسكر.

والثاني وكيل متصرف في شؤون المعمرة المالية والمادية هو (مقدم الثمن)... ويوجد المجلس الإثني عشر، ولكن التنصيص على المسؤولية للمقدم صريحٌ، لا غبار فيه... وقانون سيدي منصور لا يضبط أوقات القراءة والبرنامج والحصص وحتى الصلوات، لا يتحدث بشأنها إلا على الظهر والعصر والمغرب... وحسب صياغة قانون سيدي منصو لا يبدو أنها تعلم غير القرآن قراءة وتحفيظاً فقط. وباستثناء الإشارة لتعليم الأداب(...) أي التربية والإخلاة العامة والإنضباط الطرقي، فلا أثر لأي مادة أخرى من المواد المدروسة في غير الزاوية.

القانون غامض في شكله الذي نقله به السيد داوي أحمد بن محمد آل يوسف المشهر بالشيخ (أحمد تيميزار). فلا تفصيل بخصوص توظيف الشيخ ومدة الخدمة واستبداله، بعد السنة القابلة للتجديد كما في قانون الأيلولي.

وحتى سيدي منصور يبقى مجهولاً، إذا سلمنا بالمعلومات التي ذكرها داوي، فلا علم لنا بالشيوخ الذين تتملذ عنهم ولا بالذين أحدثوا فيه تأثيراً... ومع أننا نلتمس بيسير الملكة اللغوية والتمكن نحواً وصرفاً واشتقاقاً ومحسنات وتوظيفاً جيداً للتعابير، لا نعرف بالضبط هل كان يعلم اللغة والشريعة أم كان متفرغاً للقرآن والزيارات.!.

لكن الغالب باعتبار وجود مواد خاصة بالشيخ حتى في عهده وسلطانه وصلاحياته، ولا يقبل أبداً أن يضع سيدي منصور قانوناً يضبط به مهامه في الزاوية التي أسسها، ويسجل بالدقة أنه على المجلس الرباعي أن يخضع للشيخ، إلا إذا كان جانب المراعاة لنفوذه عنده هو الداعي لكتابة وصياغة القانون. كأن تكون هناك ضغوط عائلية أو من كامل القرية وبالأخص أصحابه الأربعين.

ومن الملاحظة الهامة تناص القانون على دور صلاحيات الشيخ المدير للمعهد باعتباره وارث الإدارة والقيادة الروحية قبل العملية التربوية في الزاوية، وهو

مايشرع القانون الداخلي كله وفق مصوغ الخدمة العامة والشخصية للمدير وللمجلس الرباعي باعتباره هيأة مكملة لسلطة المدير، ومن الأسرة نفسها.

ولا بد من الإشادة بموقف سيد أحمد بن محمد داوي آل يوسف نظير موقفه وكلمة حق إزاء قانون إسقاط حق المرأة في الميراث سنة 1748 هـ بشهادة أبي يعلي الزواوي، وهي كافية وكفيلة بأن تولي الرجل حقه وكل اعتبار مقابل هذا الجهاد والدور الرائع... فشيخ ينفرد بفتوى مغايرة لإجماع عام، قبائلي، من نصف زواوة الغربية الجبلية، هو الجهاد الإنتحاري بطريقة (كامكازي)في التقاليد العالمية الشرقية. وطريقة ابن رشد في عهد المرابطين... ويكفي إشادة أبي يعلي بموقف أحمد آل يوسف في تاريخ زواوة. وفي الإسلام الصحيح وكناه (أبا العباس).

المعلومات التاريخية للوثيقة:

بما أن وجهتنا تاريخية من تقديم هذه الترجمة، وأكثر منها عملاً فكرياً أو دراسة دينية أو تربوية أو إجتماعية، فإن الوثيقة تعتبر في هذا المنظور ثروة بما تحويه من أدلة وبراهين وآيات تعيدنا إلى عهود لم يعد لها وجود في غير الأسطورة، عهود سجلت انحصاراً مخيفاً في أذهان الرعية، ولا نكاد نلمسها في غير النظرة الأدبية والتحليل للخطاب الشعبي المتواتر.

وبعيداً عن تحليل ماسجله داوي نورد فقط تلك التعابير التي تحفظ الصلة بالتاريخ أو تمثل بعداً من أبعاده كدراسة إجتماعية للحوادث التي تزدان بها هذه الوثيقة، ومن هذه العبارات والمقاطع مايلي:

أ - سيدي منصور نزل عندنا في القرن 9 هـ، وكان من أكابر الأولياء في عصره، كان أولياء هذا العرش سلموا له الأمر ويخدمون ولا يخالفون له رأياً... نصب الزاوية لتعليم أولادهم القرآن والأدب. وصار أهل العرش يعينونه بجمع الأقوات لأولئك الطلبة والكتبة.. وجعل لزاويته قانوناً وضابطاً عادلاً... بقي ذلك القانون متواتراً ومتناقلاً إلى الآن. عدد الطلبة من 60 إلى 85 طالباً، وهم طبقات أربع. منتظمون

في ثلاث مجالس (مجلس الإثني عشر. مجلس العشرة المجلس الرباعي) استوفى رضى العبادة في الخلوة البعيدة وهي المسماة تيزيرت في يلولة أومالو... نزل أول الأمر في قرية إيعكورن، حكم سيباعو الأعلى.ومكث هناك سنة بمكان يسمى (ججيقة)، وربما سنتين، لما هم بالرحيل جاء النسوة وطلبن منه البقاء بين أحضان بلدهن... فدعى لهن بالخير والجاه.

لما وصل إلى وطننا وقريتنا استرجوا به وفرحوا ببركاته وعنايته ونزل في محل عندنا (الحمام) وبنى خيمة صغيرة فيه للعبادة.

جاء الناس من قبائل عرشنا من جهة البحر والشرق والغرب فصاروا يخدمونه. سكن هنا وتزوج وولد له أولاد. كل ولي في هذا العرش إنقاد له وسلم وخضع له.

السلطان في ذلك الوقت هو المسمى سيدي عمر بن القاضي

- وهو يحكم في بلاد الزواوي كلها.

- وكان حكمه قاهراً جداً...

من عادة هذا السلطان أن يحمل البغال والحمير من عرشنا في وقت الصيف لنقل زرعه، والخدمة عليه.

- ومن عادته أن يأتي هو وجنوده إلى سوقنا المسمى بالخميس في ذلك الوقت، والان يسمى بالأحد.

- يلزم العرش بالضيافة تصل إليه في ذلك المحل!... مع العلف الكثير لخيل جيشه.

- وفي بعض الأيام جاء ذلك السلطان إلى السوق المعلوم

- أراد الناس من العرش أن يذهبوا إليه بالضيافة كالعادة...

- قال لهم سيدي منصور لا تذهبوا إليه، بل يأتي هو إلينا (إلى هنا)

- امتثلوا لقوله...

- لما يئس السلطان تعجّب وصار يسأل الناس عن السبب من الإمتناع عن الضيافة المعتادة.

- قيل أن سيدي منصور هو الذي أمرهم بالإمتناع.

- انفعل السلطان أي غضب.
- طلع إلى محل خلوته وهو الحمام
- قال له سيدي منصور ماذا يعجبك في الجزائر أيها السلطان؟
- أجابه السلطان بقوله: كل مارأيته في الجزائر أعجبني...
- قال الولي: أمّا أنا لا يعجبني إلا الذي يقول في الزقاق (بالك ياغافل)
- لما ارتحل أرسل له الولي رسولاً يخبره باناقضاء أجله (عمره)
- ذهب السلطان إلى داره وبعد أربعة أيام ضربه واحد بالرصاصة من أعدائه فقتله...
- تشتت أمر الخلافة- لم تنعقد مدة طويلة.
- بقيت الأعراش مهملة...
- صار الناس يحاكمون إلى العلماء والأولياء، لكن بالإختيار لا بالقهر.
- كذلك إلى أن خرج الترك من الجزائر إلى هذا البلد...
- طلبوا من عرشنا أن يأذنوا لهم في قطع الأشجار من غابة تمقوط...
- امتنع العرش...
- صار القتال بينهم وبين الترك ولكن ردوه إلى الجزائر...
- كذلك يعدون سيدي منصور

يحكى أنه وقع القتال بين الترك الجزائري والعرش الجنادي... ولماتقرب الترك إلى قريتنا هذه ولم تكن المسافة بينهم إلا قدر كيلومتر... فقطعوا أشجار الكرم وأطلق الخيل على الزرع... أفسدوا الثمار للدشرة... رأى أمير الترك ثلاث مدافع تخرج من قبة الولي (خلوة الولي)

- في الصباح أرسل الله على الترك طاعوناً ووباء. وماتوا منهم كثير فرجع إلى محله بالجزائر؟

* الإحالة في آخر الدراسة:

الهوامش والإحالة على المصادر

1) هانوتو- القبائل والعادات القبائلية ج3 ص ص 380. 388. (14. 18. 19)
2) داوي أحمد، ترجمة سيدي منصور (مخطوط). 4. 7. 17. 17. 26. 28
3) وين، مملكة الجزائر RA:41 ص 138
5) عليلي (حسن) شجرة العائلة (اليجوي) فع
6) كاثكارت تتصل أمريكا في المغرب (أسير الداي) ص 115
8) الورتلاني حسين (الرحلة) ص 540
9) رسالة عمر بن القاضي لفيليب 3. 25 جوان 1603
10) بوايي بيير- أسطورة ملوك كوكو ص 44. 41
12) الحاج سعيد ابن الشاعر... ابن زكري أوضح الدلائل ص 89- 55- 73
13) العشابو (القاضي) شجرة نسب أحمد بن يوسف زرخفاوة ص 41
15) ابن زكري سعيد، أوضح الدلائل ص 72 وكذلك الإحالة رقم 16 ص 99
19) المقنيعي عبد الرحمن- التدهات رواية- 1993
20) أبو يعلي الزواوي الإسلام الصحيح ص 51 ص 70. تاريخ زواوة ص 51 (21)
23) أبوراس الناصري المجلة إفريقية رقم 23- 24 ص ص 24. 407.
24) الفكون عبد الكريم منشور الهداية ص ص 99 ومابعد.
25) روبين التنظيم العسكري للقبائل عهد الأتراك مجلة إ. رقم 17 ابن حمروش 163
27) نفس المصدر- ص ص 117- 128...



أبو زيد عبد الرحمن
الأيلولي منظر

بيداغوجية التسيير

من

القرن 17 ت 1693

أبو زيد عبد الرحمن الأيلولي منظر بيداغوجية التسيير

نقدم ترجمة عالم فذ، في هذه الدراسة، بما يثري التعريف بتراثنا الحديث. تراث زواوة وقبيلة إيلولة العريقة الدور والإسهام تاريخياً. والمليئة بآثار مادية عن العهود السالفة، من عهد: الحماديين، وما تزال قلاعهم ورباطاتهم صامدة أمام التدمير الطبيعي، وأمام فعل الإنسان، والحيوان أربطة الخيل والحمير.!.

منها قلاع بني يجر (1) وقلعة أيت حمادن، قرب سوق بوحمو (...) خميس أيلولة أومالو، وغيرها في كل فجاج ومرتفعات البلاد، حيث نقاط أمن العبور والإتصال بواسطةإشعال النيران تقليدياً.

سيدي عبد الرحمن الأيلولي من أشهر علماء زواوة خلال القرن 17 م ولكننا بالرغم من هذه الشهرة (لمعان الإسم) ذكراً وأثراً ومعهداً... وليس منظومة تربوية وقانونية بمفهوم بيداغوجي دقيق- الغاية من إعادة بناء الترجمة لحياة وللمعهد الأيلولي- لأننا لا نعرف عنه سوى مجرد ولي من أولياء الله عند البعض، مرعب أحمر العينين- وشيخ مؤسس المعهد المعمرة، ذي الإختصاص الحاسم في تدريس علم القراءات. تجويداً ورسماً- في عهودها الأولى، وحتى عندما زارها السيد هانوتو، صاحب القانون القبائلي سنة 1862م ووصفها بأنها: عبارة عن جمهورية حقيقية- الزاوية... وإن كانت فعلاً كما ذكر فهي أيضاً مؤسسة تربوية بيداغوجية حقيقية. تجربة رائدة لنظم التربية والتسيير المعاصرة

مصادر الدراسة:

اهتم بأبي زيد عبد الرحمن قلة. لاسيّما ما يتصل بالزاوية برنامجاً وتسييراً وقانوناً واختصاصاً، وموقفاً من الفقهيات... ولعل أكثر الدراسات والتسجيلات قيمة مرجعية، هي تلك التي تتناول تعاريف مختصرة لشيوخها وطلبتها، أو لقوانينها ومميزات معروفة عنها، منذ عهد الولي الموسس نفسه، المنظر للتسيير البيداغوجي الذاتي... لقد اطلع بعض طلبة المعهد فقط على النسخة الأصلية بخطه شخصياً.. والتي فقدت إثر قنبلة الزاوية في 7 جويلية 1957- ومنهم من أمدّونا بفيض من المعلومات والوثائق.

- من المترجمين للمؤسس ومعهده السيّد: أبو القاسم البوجليلي، صاحب كتاب التبصيرة في علم القراءات، وهو من طلبتها وشيوخها بعد 1231 هـ، حسبما صرح به... والتبصيرة عمدتنا، كتابٌ جامعٌ مانعٌ في علم القراءات ورواتها العشرة ومنه تُسجّل حول المؤسس وزاويته: (انتقلت إلى المعمرة سنة 1231 هـ، مقام الولي سيدي عبد الرحمن اليلولي، قرأت هناك عن أشياخي السيد العربي الخنّشي. والسيد محمد الطاهر الجنادي كان هناك تلميذاً. والسيد محمد بن علي بن مالك من قرية (تقابه). قضيت نحو أربعة أعوام وأقرأت بها بعد 30 سنة).

- مرجع ارتأينا إدراجه هنا، لما للبرجليلي من أهمية في دراستنا،ولما يتحلّى به كُتيّبهُ (التبصيرة) من مرجعية وجدية، ولما يضمه بين صفحاته من معلومات جد قيمة، حول سيدي عبد الرحمن، بل تكاد أن تكون فريدة من نوعها، بالنظر للدلالة الزمانية التاريخية. كما لم يهمل معهدُه برنامجاً وتدريساً وتخصصاً. طلبة ومقدمين وشيوخاً، وهو مرجع كل اللاّحقين بما فيهم الأغراب الفرنسيون.

- ثاني مرجع لنا هو كتاب السعيد بن زكري، مفتي الجزائر (أوضح الدلائلب على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل)... لا سيما ما يتصل بجانب النظام والإنضباط والقانون الداخلي (نسخة 1903)...

- كما كتب عن معهد الأيلولي أو عن مؤسّسه كثيرون من المعاصرين يتقدمهم العقيد هانوتو والجنرال (دي نوفو) وكزافيي (كوبولاني) وغيرهم من الفرنسيين.

أما الوطنيون فيتقدمهم السيد بوليفة وآخرون، لكنها كتابات مقتضبة لا يهمّها من الأمر سوى ظاهرة القانون والتسيير الذاتي، أو الظاهرة الطرقية (الإخوانية) كما ليكن الجنرال دي نوفو.؟

هذا وتجدر الإشارة إلى أن السيد الورتلاني لم يتطرق بتاتاً لسيدي عبد الرحمن أو سيدي منصور الجنادي (المنيعي)... ومثله فعل الحفناوي، ولا ندري السرَّ الكامن في هذا السكوت... وعكسها ذكر كلّ من ابن علي الشريف (محمد وعلي) ومحمد بن عميرة الأوزلأجي معلومات قيمة عن علاقات أسرية مع معهد الأيلولي، ولمحمد الطاهر البهلولي الشرفاوي مالهما في هذا الشأن، مثل ماللسيد محمد البشير اليعدلي...

أبو زيد عبد الرحمن مؤسس الزاوية

أبو زيد عبد الرحمن بن يسعد بن محمد بن واعلي المصباحي الخردوشي الأيلولي، تاريخ ميلاده غير مضبوط، ولكن على عادة الأقدمين نعرف تاريخ وفاته وهو سنة 1105 هـ 1693م، وبالتأكيد أيضاً هو نفس تاريخ وفاة سيدي علي بن الطالب، معاصره وشيخ زاوية كوكو. وتاريخ وفاة قاضي القضاة عمر بن محمد بن عبد المؤمن المنجلاتي 1100 هـ.

إنه تاريخ يذكرنا بمعاصرين لهم مشهورين، زواويا ومغربياً، من أمثال ابن الطالب وسيدي منصور الجنادي، وكلاهما واكب تطورات عصفت بإمارة كوكو. وقد عبر الورتلاني على الأول لمجرد الذكر بأنه (الطامة الكبرى) والغريب أنه لم يترجم لعبد الرحمن الأيلولي ولم يذكر أية علاقة بين الشيخين المعاصرين،ولا بين المعمرتين. ولا يسلم عاقل أن الرحالة لم يسمع عن أبي زيد أو لم يزر معهده، وهو الذي جاب الصخر بوادي سيباعو وأعاليه! مع ذكره مقامات إعلاماً، في عمق جرجرة أقل شأناً ومكانة من مقام الأيلولي المصباحي والجنادي! وهذه إشارة يقتضيها مجال البحث أكثر مما هي إثارة للتفكير!. وليس الوحيد المسكوت عنه، حتى لدى سلفه الحفناوي، وعذرهما أن هذه الأعمال تتطلب مجلدات فكيف بكتاب واحد!

لاسيما وأن الطرح الطرقي لديهما يكاد يكون حاسماً وقاصراً! وأبو زيد ينتمي إلى عائلة (مصباح) بواسطة يسعد الذي كان شيخاً بتابودة قبل إيخردوشن بأيلولة، وقبل بالقبائل الشرقية، عائلة علماء وأجلة ذكر -

- أمّا السيد بوليفة فقد حاول في كتابه (جرجرة والقبائل الكبرى) الإلمام بالعموميات المعروفة عن سيدي عبد الرحمن الأيلولي، ولولا أنه إنساق رهين مراجع سطحية، ولم يطلع حتى على كتاب معاصره محمد السعيد بن زكري.

وجمع كلاً من عبد الرحمن الأيلولي وسيدي منصور الجنادي وأحمد بن إدريس وأحمد بن مالك في زمن واحد وخلوة واحدة هي (تيزيبرت). مالا يمكن أن يصدق إلاّ في حال منصور الجنادي الذي نملك وثائق تروي حادثة وواقعة له مع (ملك كوكو) عمر بن القاضي سنة 1618، أي قبل وفاة الأيلولي بأكثر من 65 سنة، مايقلل من فرص تلاقيهما! لكن الأمر غير مستحيل، لأن سيدي منصور توفي في 1645م.

أمّا اجتماعهما مع أحمد بن إدريس، فنحن أمام استحالة تصديق ذلك لعودة الأول إلى القرن 14 م والأخيرين للقرن 17 م. وسنعرف بهؤلاء الرفاق لاحقا...

ودعما لجهود المتقدمين، واتماماً للنقص الذي يعاني منه الموضوع، تناولنا هذه الدراسة، ضمن عمل واسع يشمل الترجمة لعشرة من أعلام وأمراء زواوة. بعضه نشر، والبعض الآخر في طريق النشر... مراعين أن يشمل العمل الأسر والجماعات.!. وتراعي دراستنا جهود الأيلولي من أهم جوانبها ومصادرها التربوية والقانونية، مسحاً للتراث المحلي، في عصر لم يعرف المؤسسة التربوية الحديثة القائمة على التسيير الذاتي الطلابي بمجلس خاص وأخر عام، ومجلس للطلبة الجدد وحدهم، والمجلس الإثني عشر العجيب... كما حاولنا إثراء البرنامج والإختصاص الدقيق! جوانب تعتبر مزايا ومحامد وريادة للمؤسس وزاويته حتى عهد الإصلاح في 1165/ 1846.

ذكر ابن علي شريف سيدي أحمد بن مصباح قبل 1224. ومحمد بن عبد العزيز بن مصباح... نسخة 1321 لمحمد الطاهر البهلولي الشرفاوي...(3) والإنتساب المصباحي للعائلة يضعها فرعاً من آل مصاح بني يعلي. ومنها كان انتقال سيدي يسعد والد أبي زيد، وربما (محمد واعلي) إلي ربوع أيلولة. ولم يكن قد انتقل بمفرده، لأن أسرة كبرى كانت ملازمة له، قائمة على خدمة ورعاية معهده، في حياته وبعد مماته.

إنها عائلة (إيزمراقن) بتابودة. ومايزال اللّقب نفسه للعائلة والقرية حتى اليوم، في كل من أيلولة وبني يعلي. وجدير بالذكر أن هذه العائلة هي الوحيدة التي انفردت بحق التمدرس وخدمة الزاوية الأيلولية... بينما اعتبر ذلك محضوراً- كتابياً- على كافة أبناء أيلولة، الأقارب منهم والأباعد على السواء- كما قضى الولي.

أما بخصوص يسعد بن (محمد واعلي). فلا بد من التذكير بمحمد واعلي من ذرية سيدي يونس الزلاجي، أي نفس أسرة ابن علي الشريف... كما يوجد (أحمد واعلي) آخر، هو جد الأسرة الفاضلة (عليلي) ولكننا لا نملك توكيداً على انتساب يسعد، والد أبي زيد إلى هذا الفرع أو ذاك. ونرجح أن للنسب الإدريسي، الجامع بين الجميع، هو المضبوط في كتاب *التحقيق* لعبد القادر بن بوزيد الأغواطي، وهو أقرب إلى المنطق (البيوغرافي) لأنه يترجم لسيدي (موسى بن عيسى) (حيجب*) قرب إيخرذوشن، وهو آخو سيدي عبد الرحمن الأكبر...(+) وهو موسى بن عيسى بن يحي بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد القادر بن عبد الغفار بن يسعد بن مسعود بن يوسف بن علي بن محمد بن كثير بن إدريس الصغير بن إدريس الكبير... ولعله من الأمانة التذكير بأن صاحب كتاب التحقيق يؤكد بأن ذرية (موسى بن عيسى) موجودة بأيلولة... وبهذا يزيح كل غشاوة واشتباه، ويدعم الرواية بالأوابد والأضرحة من موسى حيجب، الذي يرتبط حسب التراث بعلاقة عائلية مع سيدي موسى (يتورغ) وصاحب (تكانة) عمر بن معمر أوموسى ونعتقد أن هؤلاء معاصرون جميعاً، أو هم أخوة وصرخة واحدة من صُلب كثير ابن إدريس.

أقام يسعد بن محمد بتابودة أول مقام لأيت مصباح بالموضع الأثري (آخرذوش) عند البلدية الحالية. ولكن تعدد الأضرحة وإسم يسعد في كل من آيت لحسن وبني زيكي أمر محيّر.. وهي تقع كلها في محيط لا يتجاوز 20

كلم... ومثله موسى الذي يوجد فيه أكثر من خمسة في نفس المحيط، كما سيأتي توضيحه. وهو من أواخر القرن 16، أي عهد إمارة كوكو والأتراك.

نشأة أبي زيد ودراسته:

ولد في أيلولة (تابودة) تلقى دراسته. الأولى على والده يسعد بن محمد واعلي، ثم انتقل إلى زاوية أحمد بن أدريس- حسب الرواية- ومنها انتقل صحبة شيخه امحمد السعدي البهلولي إلي غابة ميزرانة حيث معمرة الشيخ. وهي ذات الإختصاص، علم القراءات، غير بعيد عن شاطئ تيڤزيرت البحر. ولم يكن قد انتقل بمفرده. ففي الرواية المحلية ترشيح إلى أنه انتقل ضمن خمسة أو أربعة، وربما سبعة من خلوة (تيزيبرت) إلى ميزرانة كما لدى بوليفة بلا ضبط وتحري.!

كما يسود خلاف حول شخصيات الرفاق لأبي زيد، فهل هم عبد الرحمن الأيلولي وأحمد السعدي بالتأكيد مع أمحمد بن مالك، أم غيرهم من الأسماء الكثيرة المترددة في الرواية! وفي بعض المراجع الضعيفة المصدرية وهل كان معهم موسى واعلي وابن عروس؟..

الأهم بالتسطير هو وجود آثار دالة بالإثبات على مقام سيدي عبد الرحمن بزاوية ميزرانة، وتوجد عين ماء مسماة باسمه- حتى اليوم- وهذا مايؤكد مقامه الطويل هناك، شمل فترتي الدراسة والتدريس والتقديم الطرقي خلفاً لشيخه.

كما تشير مختلف الروايات إلى أنه قام بتأسيس المعهد الأيلولي، نزولاً عند رغبة شيخه فيما بعد، وعملاً بوصاياه- الأوراد- وأنه كان من الطلبة المقدمين وقد أثر في سلوكه وتوجيهاته وتخصصه...

- لقد كان تأسيس معهد الأيلولي حدثاً لا يخلو من طرافة وعجب! لعامل القرب بين معهدي ابن إدريس والأيلولي (...) وعلى غرار طلبة وشيوخ العهد ساح عبد الرحمن كثيراً عبر زواوة وأقام في عدة أماكن دارساً أو مدرساً أو

متنسكا متعبّداً... لاسيما منها أيلولة بأعالي (تيزيرت) ثم ميزارنة الغابة وفي الأربعاء- إيراتن- حيث أقيمت له قبة بموضع الثانوية الحالية... مايؤكد إقامة مطولة له، شيخاً متعبدا بالربوع، وهو موضع غير بعيد من مقام الشيخ بن أعراب يعد عهد الأيلولي بنصف قرن، ومن ابن عروس.!. موطن يرى منه صاحب التحقيق تمركز ذرية (على بن بوزيد) (البوازيد الشراقة)، في كل من أعروس، إيراتن، وبالقرى القريبة ذرية سيدي (بو عيسى) وأبي جحا وغيرهما. وهم ينتمون إلى البوازيد الشرفاء حسب المصدر السابق. (5)

أمّا عن إقامته في القبائل الشرقية، فهي محتملة لوجود أملاك كثيرة وضيعات الزيتون والتين ومزارع الحبوب في حوض الصومام وبني منصور وحتى مجانة والبرج.

أملاك موقوفة على الولي وزاويته بطرق التتلمذ والمشيخة أو الوراثة والوقف. مما يتضمن معنى العلاقة الدموية- وروابط الوفاء لدى هؤلاء، والعلاقات كانت دوماً متواصلة بين الأحياء (العلماء والطلبة، وجل شيوخ الزاوية من القبائل الشرقية كما سيأتي. وتتجاوز الأملاك الموقوفة محيط القبائل إلى قسنطينة والجزائر العاصمة... وفي عجالة قد تخل بالترجمة، نضطر إلى الإختصار القدر المتاح، وعوننا في الأمر كتاب أوضح الدلائل وهو تلميذ وشيخ بالزاوية حين يقول:(6)

كان رحمه الله وحيد زمانه وفريد عصره، في الرواية القرآنية بمقارئ السبعة والعشرة. أخذ روايته عن شيخه المشهور سيدي امحمد السعدي (البهلولي) مع رفيقه السيّد محمد العربي الحرزوني البترني، عن شيخهما سيدي عبد القادر الفاسي، شارح الدور اللوامع في أصل مقرئ الأمام نافع (رسم قرآن ومخارج الحروف والتجويد)... لأبي الحسن علي بن محمد بن علي بن الحسن التسولي الشهير (بابن برّي).

أمّا السيد محمد بن عنتر من أولاد علي أو حرزون بني بترون- بزواوة فقد اشتهر بنسخ 99 مصحفاً، وترك تمام المائة ناقصا، وهو دفين قبة واحدة مع أبي زيد عبد الرحمن، ومع السيدة فاطمة أخت أبي زيد...

ويشهد ابن زكري الذي أقام بالزاوية دارساً وشيخاً أن سيدي عبد الرحمن كان مهاباً محترماً عند جميع القبائل، ترتعد فرائصهم عند سماع ذكره، وقد عينت الحكومة الفرنسية معمرته لأداء اليمين الشرعية... وكثير من الناس يسمحون في حقوقهم بعد ثبوتها، فراراً من الوقوف عند ضريحه لأداء اليمين... وقد لقبه أهل وطنه (أزڤاغ والآن) أي أحمر العينين.

مات ولم يخلف ذكراً ولا أنثى، ودعى على أخوته وأعمامه وكل أقاربه أن من سمى باسمه (عبد الرحمن) أو دخل زاويته وسكن بها ولو للقراءة، أو أراد أن يتصرف فيها بوجه من الوجوه... يموت إن شاء الله كلالة.!.

وحوالي قرية إيخردوشن ماتزال معالم وخلوات صخرية يحكي عليها ذووه الكثير، من الخوارق وعين الماء والشجرة المباركة، والمصحف العجيب.

معمرة سيدي عبد الرحمن وجارتها:

تطرح أمامنا جملة تساؤلات عن سرِّ اختيار الموقع، وهي تطرح بدورها أسئلة أخرى عن العلاقة بين المعهدين، لأن المكان الذي أقيمت فوقه زاوية الأيلولي، لا يبعد عن المعهد الإدريسي،الأقدم منه لعودته إلى القرن 14 م، بعد 1358م. وتجدر الملاحظة أن صلاة الجمعة لاتقام إلاّ في زاوية ابن إدريس، ولهذا معنى يتجاوز ظرف الزمان والمكان إلى رابطة الولاء والوفاء، والتواصل، وتكامل الرسالة.

وحول هذه الظاهرة نسج التراث الشعبي المحلي(...) رواية، مفادها أن سيدي عبد الرحمن عندما استشار شيخه أمحمد السعدي في الأمر، أشار عليه بأن يؤسس الزاوية بالموقع القريب من معهد ابن إدريس، وعندما أظهر التلميذ التعجب من هذه الوصية، لعامل القرب، ولما قد ينشأ بينهما في المستقبل من تنافس، وربما تطاحن وعداوة، إذ كيف يؤسس معهده قرب معهد أحمد ابن إدريس وهو المتلألأ كالمصباح على كامل الربوع...؟

تقول الرواية أن شيخه امحمد السعدي البهلولي أجابه: - إذا كان معهد ابن إدريس مصباحاً... فإن معهدك سيغدو صباحاً...(7)

وهكذا أنشئ المعهد الذي كان فعلاً بمثابة المصباح الوضاح. لكنه لم يحدث أبداً أن أزاح المصباح المجاور، وإن عرف فترات ذبول ولمعان خافت...! لقد تعايش المعهدان في سلام غالباً، وتداول عنهما نفس المشائخ... سلام لا تكدره غير بعض توترات آنية، بين الطلبة وبين الأنصار لكلي الزاويتين، ولا تسجل الرواية أي صراع أو شجار، سواء ماهو مصدره ثقافي أو مادي، كالنزاع حول الماء والمرعى والغابة والزوار... ومع أن بعض المقيمين من الطلبة (الداخليين) أو الزوار المترددين بكثرة على كلى الزاوتين. من شأنه أن يُثير بعض المنغصاة، إلاّ أن المشهور هو التضامن بين المعمرتين للصمود في وجه الزوابع المثارة حول إحداهما، وفق قانون الدفاع الشرعي، لا سيما في العهود الأخيرة.

التسيير والقانون الداخلي

إنها مؤسسة، منظومة قائمة بذاتها منذ حياة أبي زيد عبد الرحمن، وهو واضع قانونها ومسن هيآت تسييرها وبرنامجها الدراسي، ولم يطرأ عليها أي تغيير لغاية 1262هـ 1846م، عهد أول إصلاح بيداغوجي لها ولبرنامجها.(8)

تمتاز هذه المعمرة بنظام تسيير دقيق، يخضع لقانون صارم، مكتوب بلغة يفهمها الجميع، لأنها (القبائلية بحروف عربية) قبل أن يأتي من يعلمنا الأمازيغية بحروف لاتينية بأكثر من ثلاثة قرون.!.

وهذا لم يشر إليه العقيد (هانوتو) بل رآى منه مجرد قانون عرفي للقرية، وتسيير محلي، وهذا دأب هؤلاء، فكل عظيم من مفاخرنا يقزم إلى مستوى الإبتذال(9)(.....) إلى حد الصمت مثل موقفه من نص القانون المكتوب بحروف عربية... لأن العربية التي تأخذ بيد القبائلية تُقضُّ مضاجعهم... - يضبط القانون الأيلولي الحياة داخل الزاوية وخارجها، لأنَه يسمو إلى الطالب حيث يتواجد، ومنذ الإنتساب، يحدد العلاقات بين فئات الطلاب وبين المأمورين المسيرين... في مختلف المجالس، كما ينظم بدقة عجيبة هيآت التسيير والخدمة الذاتية! وكذا الأصناف وفئات الطلاب حسب المستوى والعمر والأقدمية...

قانون أولاه العناية السيد هانوتو في 1862 والسيد بن زكري من بعده 1903، فقدتناولاه بالدراسة والتحليل والنقد وهو يغطي أكثر من 100 مادة تغطي كلها:

- شروط الإنتساب ورسوم التسجيل
- العلاقات والخلق التربوي والإجتماعي
- القانون الداخلي، إقامة،أ كل، خدمة، تعلم، مراتب
- الردعُ والمكافأة والإجازة
- هيآت الإشراف ودواليب التسيير
- برنامج التعليم وأوقاته وإقامة الفروض الدينية
- حقوق الشيوخ وطرق توظيفهم ونفوذهم.

- الإحباس والأوقاف وموارد الزاوية الدائمة والمكملة (شحاتة- تصنيف- نذهات)...- الضيوف عيال الله...

- قانون تقوم سلطته في مجلس صباحي عام، يومياً، يضم كل أصناف الطلبة، يعقد تحت إشراف المقدمين الرئيسيين (مقدم العسكر- المراقب العام ومقدم الثمن المتصرف أو المقتصد)، وتعبير العسكر والثمن خاصيتا هذه الزاوية.!.

كل مجالس الزاوية خاضعة للقانون، ولا شيء غير القانون، وهم يعودون إليه كلما اضطروا لذلك، ولكن نادراً ما يبرزون النسخة الأصلية (بخط الولي)، ذكر عنها طالب الزاوية، شاهدها في 1952، قال أنها بالورق المقوى القديم- الغير مسطر- وبخط أسود حائل... وهي لم نعثر لها على أثر أو ذكر لدى الطلبة القدماء، ولدى فضلاء الناحية، ولكن الطالب على اعتقاد الجميع أنها سرقت، ولم يشملها الإتلاف والخراب الذي لحق بالمكتبة في 1957.

المجلس الخاص: للزاوية مجلس خاص، من الطلبة القدماء يضم متصرفين مقيمين، أو خارجين، يتولون النظر في أحوال المعمرة داخلاً وخارجاً، وكذا ترتيب القراءة والصلوات وسائر الأدبيات.(10)

يشتمل المجلس الخاص على عدد من الأعضاء بين 10 و12 يزيد أو ينقص ... حسب شهادة ابن زكري.

يمتاز كل عضو من الطلبة الاخرين بوصفه (رائداً) يوجب له لقب (القديم) ومن عداهم اعتبر جديداً حتى وإن قدم عهده، ومن هذا المجلس ينتخب المقدمين الرئيسين- عسكر وثمن-

في معمرة سيدي عبد الرحمن يعرض كل انتساب جديد على المجلس العام الصباحي، من طرف المجلس الخاص، وهو الذي يقوم بالتعهد عند قبول أي طالب جديد وفق شروط أهمها:

- التحري في ماضي وأخلاق الطالب قبل الإنتساب- انتقاء.
- قبول الجديد في مجلس عام يرأسه مقدم الثمن
- دفع رسم الإنتساب ويقدر بـ 50 فرنكاً إلى 75 فرنكاً (1903) وهي تغذي صندوق الطلبة.

يتمتع كل جديد بفترة (ثمانية) بيضاء، لا يعاقب خلالها على ذنب أتاه، ويُعذَر بجهل القانون الداخلي...

وظيفة المجلس -(خاص وعام)

مجالس الزاوية متعددة، لكن أهمها هو المجلس الخاص الذي يضم الأعضاء المتصرفين فقط، وعددهم اعتيادياً وتقليدياً(12).

إنه شبيه بالمجلس المؤمني الموحدي لابن تومررت.!. وانعقاده قليل الوقوع، لا يلتئم إلا لحدث جلل، ويعلق عنه ابن زكري:(1)

«إن أمر هذا المجلس ينعقد في حالات أربع:

عند عزل عضو وتعويضه بآخر.

عند زيادة عضو لإتمام النقص.

عند نفي طالب من عموم الطلبة.

عند تحويل المجلس إلى هيأة الطاعة والتأديب...

وعندهم لايسترد الطالب المطرود، حتى ولو كان ابن الولي أبي زيد نفسه. ومن صلاحيات المجلس أيضاً تجديد فترة المشيخة السنوية للشيخ، أو تعويضه باخر.

يسمح لهذه الجماعة باستشارة أطراف خارجية (طلبة قدماء وشيوخ...) وهذا بعد المداولة العامة ضمن المجلس الصباحي الحاسم... والمجلس الخاص هو الهيأة العليا التنفيذية... أمّا العام(12) فهو السلطة الروحية والوحدة!.. والعلاقة بين الهيآت تكاملية وليست سلطوية، نظامية وغير تنافسية!

يلتجأ غالباً عند الإستشارة للطلبة القدماء. المعروفين لدى عموم الطلبة، وهذا أيضاً من الثقافة العامة التي يتحلى بها طلبة سيدي عبد الرحمن. فهم يتذكرون جميعاً أن فلاناً مثلاً تتلمذ أو تشيخ بالزاوية. وأن فلاناً طُرِد أو توفي أو تعرض لحادثة.

تتواتر سلسلة الأشياخ، مع بعض تداخل، كما سجلّها أبو القاسم البوجليلي من عبد الرحمن الفاسي المتوفي عام 1091 هـ حتى العربي الخداشي عضو المجلس الإثني عشر، حافظ على عضويته حتى بعد تقاعده، عن عجز، وهو المتوفي 1272 هـ، درس عليه البوجليلي.(13)

مثله السيد محمد الطاهر الجنادي، حافظ على العضوية أثناء مقامه بالجزائر، حتى سنة رحيله لتونس 1283هـ.

ويشترط في العضو المرشح لأداء مهام المجلس التحلي بخصال الطالب المجد والمثابر، المتاز سلوكاً وتفكيراً وأثرة وأخلاقاً.

فطلبة سيدي عبد الرحمن لا يؤمرون عليهم أراذل القوم. إذ يعلق ابن زكري: هذه العوائد هي التي أسس عليها بنيان هذه الزاوية، وبها استقرت إقامتها، ولا شك أن قوام عمارتها وتمام نظامها مشروط بالتمسك بها والعمل بمقتضاها. لأن غالب القانون منقول عن صاحب الزاوية ومحفوظ عنه في حياته رحمه الله... (14)فزاوية الأيلولي عكس الزوايا الأخرى تتغذى من روح الولي في حين تتمثل أغلب الزواياالتمثيل عن الولي والمؤسس... ولهذا ترك النظر في شؤون الزاوية الداخلية والخارجية للطلبة الساكنين، الآتين من كل ناحية. ميزة تختص بها هذه المؤسسة الحقيقية فعلاً... إذ لا يوجد مستغل لفيئها أو حبسها وصدقاتها بوجه القرابة والميراث.!. ولا وجود لتسلط أو جبروت مسيّريها. لأنهم جميعاً مؤقتي التكليف... شهراً لمقدم العسكر (المراقب) ونصفه فقط لمقدم الثمن (المتصرف المالي) وليسوا مبايعين كما في الزوايا الأخرى.!. فالإستثناء الوحيد يكمن في دفن السيدة فاطمة أخت الولي أبي زيد بنفس المقام، وذلك لكونها امرأة صالحة عاملة، مؤهلة، نذرت نفسها لخدمة الله وللعبادة...(15)

فئات الطلاب:

أهم تقسيم يخضعهم إلى طالب جديد وطالب قديم. والكل متساوون في الحقوق والواجبات والإعتبار، وليس هناك أدنى فارق إجتماعي أو تمايز مادّي.

يرتَّب الطلبة قانونياً إلى شريحتين وصفين دراسيين، فالطالب الجديد لا يعني عندهم الإنتساب القريب العهد للطالب، بل التحصيل وشروطاً أخرى، يقررها الشيخ في الإجازة السنوية لكل الطلاب، جماعيا وأمام الملاء.. وهو شبه امتحان آخر السنة. والطلبة الجدد في سيدي عبد الرحمن يسمون (القداديش) أي خدمة الشيخ والزاوية وهم أصناف بحسب الخدمة إلى:(14)

(1) إينوالن- الطباخين (2) إيرَحَاين- الرحاة (3) إيسقاين- السقاة (4) إيحطابن- الحطابين (5) إيدوألن- المناويين.

وغالباً ماتوكلَ الأعمال كأعباء التحطيب والسقاية لعناصر خارجية يوفرها المحيط من الزوار الطويلي الإقامة، أو من المتعاطفين بالناحية، والمتطوعين تلقائياً وتقليدياً.. ويذكر ابن زكري:

أمّا القداش في العرف القبائلي، هو القائم على خدمة شيخ الطريقة والزاوية... ويستعمل لفظ الخادم لمن هو خادم الجبابرة والموسورين والحكام.

- والقداديش فئة يسخرها المقدمان وكل الطلبة القدماء في عموم المصالح مثل: كنس المرافق- أيضاء المصابيح- إيقاد النيران ببيت الضيوف والشيخ إطعام الزوار وشربهم وإيوائهم. وكذا العناية ذات الأولوية بالحيوانات، دواباً وبغالاً وقططاً، قبل أي كان إطعاماً وإيواء وعناية... لا سيما القط عندهم، فهو محاط قانونياً بالرعاية التي تضعه في مصاف(الطهارة).. ويقضي الجدد بعض مآرب الكبار، وقد يمكث الطالب سنوات ثم يأمر المجلس الخاص بترقيته لمستوى الطلاب... ويعلم المجلس العام الصباحي بذلك وبانعقاده...

لفائة القداديش قانون خاص ولجنة رباعية ومقدم خاص، يأتمر عليهم. يعقدون اجتماعاتهم يومياً وسرياً، يذودون عن السرية بالأحجار عن كل متطفل على جمعهم.!. ويختارون لها وقت الزوال... وتعقد لإقامة الحدود والتربية التلقائية (طلاب/طلاب) سرُّ عظمة التسيير بهذه المعمرة.. قد يستشيرون في أمورهم المعقدة كلّ من يتسمون فيه الأمانة. وعند التعذر يحوّلون النازلة إلى مجلس عام، أي نقل المشكل من السرية إلى العلانية، وكل علانية لديهم عقاب وتشهير، مادامت تطرح أمام المجلس العام... وممّا يلاحظ أن فائة القداديش يُحتكم في أمورها إلى المتصرف المالي (الثمن) وليس مقدم العسكر (المراقب)، فعلاقتهم بالمسؤول المالي أكثر مما هي مع مسؤول النظام والإنضباط.

البرنامج الدراسي والإصلاح:

تلتزم الزاوية في وفاء مثالي بطريقة تدريس مؤسسها، ولما كان أبو زيد عبدالرحمن متبحراً ومختصاً في علم القراءات، مثل شيخه أمحمد السعدي؛ نقد اقتصر برنامج الزاوية في علم القراءات، بالروايات السبع والعشرة المشهورين (أولهم أبو رؤيم المدني- ثم أبو سعيد عثمان ورش ثم قالون- عيسي بن مينا الزرقي ثم إسحاق المتسيبي فإسماعيل بن جعفر بن كثير الأنصاري... ورواتهم جميعاً عشرة، معروفة أسماؤهم لذوي الإختصاص، كما قدمها البوجليلي في التبصيرة... (ص13)- ، وهي روايات وقراءات تعتمد الإحكام والإتقان والضبط العجيب-حتى حصلت لرجال منهم ملكة راسخة في الحفظ والرسم والرواية- إلى أن كان ثبوت القرآن في أذهانهم بمثابة ثبوت الأشخاص في عالم وجودهم حسب ابن زكري-(17)...

ولا يعني هذا أن الزاوية لا تدرّس بها علوم أخرى، مثل علوم اللغة والبيان وحتى الفلك في العهود اللاحقة، ولكنها لم تسمح هيأتها المشرفة من عهد المؤسس (...) بتدريس الفقه- سيدي خليل- والحجة عندهم أن هذا العلم يمكن أن يشكل منافساً خطيراً على حساب حفظ القرآن والروايات والقراءات التي اعترف الفكون بباع زواوة الطويل فيها.! سنة على مافيها من طهر النوايا، خالصة لله وكلامه...سوف يكون لها تأثيرها على المستوي العلمي والديني، فالقبائل حيث يحفظ القرآن لأنه كلام الله مبارك وترياق. وليس لأنه دستور الدنيا والآخرة. وربما جر هذا المفهوم انحرافاً في الفهم وفي الفتوى، إلى عدوانية تجاه كل من حصل على نصيب من المعارف والعلوم الحديثة كعلوم الفقه والحديث والمنطق والفلك وعلوم اللغة نحواً وصرفاً وبلاغة... ماأوقع علماء أجلة في دخول حروب كلامية خافية الجيوش! وجبهاتها متعددة... وعندهم لا يعترفون

بغير (مالك) ولا بمن يفتي خارج مالك!. وليس من قبيل الصدف أن يجتمع أشباه علماء لإصدار قانون مريع... هو حرمان المرأة من الميراث وإسقاط حق اليتيم ومنع الشفاعة وغيرها في سنة 1748م... وأغرب من هذا مايمارس من فتوى في بعض حالات الخلع واللعان والطلاق البائن... رغم صريح النصوص القرآنية، فباسم العرف مررت القنبلة في سمّ الخياط!.. أمور لم تحدث في حياة سيدي عبد الرحمن ولا سيدي منصور الجنادي ولا سيدي علي بن الطالب... ولكنها حدثت عند خلو الساحة من متدبري النقه والفتوى عموماً...

ومهما يكن أمر البرنامج. قد خضعت زاوية الأيلولي لأهم إصلاح وتطوير في مناهجها ومستواها العلمي والثقافي، وأدرجت ضمن برامجها مواد وعلوم اللغة من النحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق وعلم الفلك (عهد السيد المولود الحافظي) وكان هذا منذ سنة 1262هـ وتمّ على يد الفاضل العلامة محمد الطاهر الجنادي، كما درس بها (سيدي خليل) في عهد محمد بن عميرة. وهو المشهور بالتبحر فيه قبل 1918... وإذا أخبرنا ابن الفلكون بأن زواوة تشد إليها الرحال لدراسة علم القراءات في زاوية ابن الموهوب منذ 1010هـ (18) وقبل عصر سيدي الرحمن بمائة سنة. فإننا لا نعثر على معهد مختص بهذا الفن في غير الأيلولي وزاوية ميزرانة في العهود التالية... ويجب إبعاد الإشتباه بين معمرة تحفيظ القرآن والقراءة والكتابة (الكُتاب) وبين معمرة تدريس القراءات والروايات والمعمرة المعهد التي تدرس علوم العصر كلها. وهذا ابن زكري يخبرنا بتوفر شيوخ ومدرسّي الفقه والعلوم الأخرى في غير زاوية سيدي عبد الرحمن المختصة بالقرآت. ما أضفى على الزاوية وعلى طلبتها سمعة مرموقة عبر زواوة وخارجها، وكانت مقصداً وقبلةً لطالبي التبحر في هذه العلوم، حتى سمعنا عن شيوخ يأتونها من قسنطينة وتونس ومن الشرق والغرب أمثال مصطفى برناز وأمثال الفاسي... وقبل عهد الأيلولي اعتادت الزواوة

استقبال العلماء والطلبة والثوار حسب ابن الفكون...(14) وليس غريباً أن يبايع لقيادة الجيوش المؤمنة المجاهدة للغزاة الفرنسيين منذ 1830 شيوخ طريقة من المغرب الأقصى وسوس وزواوة، وأن يسير 25000 مجاهداً زواوياً تحت مباركة وقيادة مقدمين وشيوخ، مايزال التاريخ يحفظ لنا أسماءهم وأصولهم مثل مقدم زاوية أحمد بن إدريس (مولاي إبراهيم سنة 1830). تلبية لنداء الداي حسين.

ووطنيا لم يكن الأمير عبد القادر غير مقدم وشيخ طريقة، وهو قائد جيش الجزائر المجاهدة منذ 1832هـ.

- الصفوف الدراسية -

يرتبهم ابن زكري صفوفاً مع القدماء إلى:

1) مبتدء: وهو كل طالب لم ينه سورة البقرة (جمل) أي أقداش وهم أصناف كما تقدم، ولهم حزب خاص ومجلس مقصور عليهم ومقدم.

2) المتوسط: كل طالب خاتم البقرة، وشارع في الإعادة- قدماء

3) المنتهي: الحافظ للقرآن والمتفرغ لعلوم القراءات والتجويد وهم المعيدون. مساعدوا الشيخ، وهم أنواع دراسة وتدريس من:

أ) السباقين: فائة تتلقى الدروس عن الشيخ كل صباح بأسبقية، وتنقسم إلى معيدي الصباح لأفواج من الطلبة. ومعيدي المساء للأفواج الباقة... ومنهم من يختص بتلقين الدروس والقرآن للهجائيين أو (الحجارين) حسب هانوتو(20).

ب) الدوالين: نوع متقدم من الطلبة ومتميز مستوىً وعمراً وتحصيلاً! وهم مساعدوا الشيخ والمعيدون.

والدوال يتلو نص سيدي خليل مثلاً بصوت عال، ويردد معه الطلبة أو الجدد، في تلقين متواصل حتى تمام الحفظ والتمكن! ولا شرح لأن ذلك يختص به الشيخ (العهد الأخير).

ينص هانوتو على أن مناصب (الدوالين) تباع بخمسين فرنكاً لدوال الشيخ سنوياً، بينما لا يتجاوز سعر دوال القداديش 4 إلى 5 فرنكات 1862. ويتم تحصيل منصب الدوال بإجازة من الشيخ.

ووجود هذه المهمة خير دليل على الجدية والعناية التي يوليها الشيخ لإتقان الكلمة، باعتبارها معنىً ومغزى فكرياً وثقافياً ودينياً يجب ألا تحرف أو تلحن، وليس لأنها مجرد حروف ومقاطع أصوات، فكلمتهم في ذلك العهد هي التي خصص لها نزار كتاباً كاملاً (الكلمةُ)...

يتضح مما تقدم أن الشيخ في سيدي عبد الرحمن يمثل (الكرسي) يؤدي مهام التدريس بواسطة مجموعة السباقين والدوالين، وكلهم مساعدون أو معيدون في التعبير التربوي الحديث. النظام السائد قبل اختراع النظام الجامعي العصري في التعليم، ومنذ عصر الأيلولي قبل 1693م.

تبدو منظومة الأيلولي كأولى تجربة يتيمة!. لسوء الحظ لتعليم راقي لم يولد إلا في القرن 20، وهو التعليم الجامعي العالي.

تجربة ولدت لتموت دون أن تسعفها الأجيال المتلاحقة بالرعاية والتحصيص والإثراء والتعميم، حتى أتى عليها زمن لم تعد تنفصل فيه عن قانون العرف فاعتبرها الدارسون امتداداً له، لتحجرها في أكثر من 60 معمرة...

وهذا غير صحيح لأن بيداغوجية التسيير قائمة على النص الواضح الدقيق المنبعث من تعاليم الشريعة الإسلامية، وعلى هيات تطبيق (لسن وتنفيذ) ذات الصياغة القانونية المختصرة.

والهيآت في حد ذاتها استمرار للموحدين، من المجلس الرباعي إلى الخماسي إلي العشري إلى الأربعيني، كما في زاوية سيدي منصور حسب داوي... ولا يلتزم العرف بغير الهيأة الوحيدة(الجمعة) وتعيين مباشر لأمين، امتداد سلطة القانون بواسطة شخص وعرف، والحدود موضوعة، وكل ماشذ أزّم الجمع وافتتن الناس بتجاوز الأمين والجماعة معاً، وكانت الكارثة (الإنفصام).!

التوقيت والتنظيم التربوي: ذكره كل من هانوتو وابن زكري، وهو عجيب! عندما يستعرضه معاصر منّا، ويتأكد أن وقت النوم لا يتجاوز 6 ساعات فقط، وإلى جانب المهام الإجبارية (الخدمة الذاتية) التي تعوّد الطالب، مهما كان سنه الإعتماد على النفس، وإدارة شؤونه وتوفير حاجياته بنفسه بعيداً عن البذح والتبذير... فلا إفراط ولا تفريط.! كما يقولون، فهو طالب علم وجندي من جنود الله، صاحب رسالة حيثما تواجد وأينما اتجه وارتحل... وبهذه القناعة حازوا حسن تقدير المجتمع وخير حظوة فقالوا عنهم (ملائكة) وتتوزع مهامهم بالزاوية إلى مايأتي:

1) يستيقظ الطالب في الثلث الأخير من الليل لقراءة القرآن حتى الفجر
2) تلاوة الحزب الراتب جماعياً بعد صلاة الصبح.(1)
3) الإجتماع العام الصباحي المياوم تحت إشراف مقدم العسكر.
4) القراءة في الألواح(2)، الجدد على الأقدمين، المعيدون على السباقين
5) وجبة الغداء- لا تلمس الملعقة إلا بإذن المقدم (...)
6) دراسة العلوم حتى آذان الظهر
7) قراءة الحزب الراتب تحت إشراف المقرئ ومقدم العسكر(3)
8) إستراحة من العصر إلى المغرب، لقضاء الحوائج الشخصية.
9) قراءة الحزب الراتب بالرفع ومد الصوت (ترتيلاً). (4)
10) قراءة فردية أو مزدوجة فقط للقرآن، غير جماعية...(5)
11) تناول العشاء ثم إطفاء الأنوار والنوم عند سماع نداء المقدم (الرقاد، الرقاد، الرقاد).. الحادية عشر تقريباً...

ومما تقدم يلاحظ الإنسان أن نصيب الأسد في التوقيت نهاراً وليلاً قد حازه القرآن والرواية ومختلف فنون القراءات... ولهذا اعتبر (هانوتو) معمرة سيدي

---

* الشخصية الرابعة من ترجمتنا...

عبد الرحمن، من جملة المعاهد القرآنية(...) التي يحفظ فيها كتاب الله، إلى جانب علم القراءات والأجرومية والألفية والتوحيد لابن عاشر والحساب- للقالصادي، والمنطق والفلك في عهد ابن عميرة وابن علي شريف والمولود الحافظي...

لقد عدد الكاتب 16 معمرة من نوع سيدي عبد الرحمن أي معمرة تحفيظ القرآن- وهذا خلط وخطأ كبير... فمستوى سيدي عبد الرحمن (علوم القراءات والتجويد) لم يتوفر إلا في زاوية ابن الموهوب عهد الفكون وقبل 1092هـ وفي زاوية ميزرانة وسيدي عبد الرحمن الأيلولي قبل 1105 هـ 1693م. أمّا المعمرات الأخرى فهي لتحفيظ القرآن فقط، وتعليم مبادئ اللغة وتحفيظ المدوّنات والأرجاز المشهورة مثل ألفية ابن مالك والأجرومية ولامية الأفعال والأمالي لأبي علي القالي وغيرها...

بينما لم يحص من المعمرات المختصة بالشريعة أي علوم الفقه والحديث والمعارف الأخرى غير أربعة وهي:

- معمرة أيت الحاج- بني دوالة
- معمرة أمحمد بالحاج- تفريت
- معمرة آيت اعمر- تمزيرت، إيراتن
- معمرة الشرفاء- (القواضي) جمعة الصهريج بني فرواسن-[21] وربما ماثلت

معمرة الأحد لدى بني يراتن زاوية أحمد بن إدريس من حيث وجود فائة طلبة وفائة الإخوان... ويذكر أنها أخليت من طرف بني فرواسن منذ 1816 أو 1820. وهذا يوحي بما تردد في الخطاب الشعبي عن حرب ضروس، دارت رحاها بين بني فرواسن وبني يراتن وواسيف، والتي تشير وثائق إدارية خاصة عن العهد العثماني (1149-هـ 1160هـ) لبعض آثارها ووقعها وتأثيرها على

---

* ابن زكري أوضح الدلائل ص 54

حركة التنقل والمرور، وسنة (الأمان) التي يضفيها المرابطون في مقدمتهم أبو القاسم بن ابراهيم في النصف الثاني من القرن 18م* (22).

قانون المهام والآداب العامة:

إجبارية حضور الإجتماعات القانونية الدقيقة النظام والوقت، والتي لا يسمح فيها الحديث إلاّ لمن أذن له بذلك. ولا يسمح بمدّ الرجل أو حكّ الرأس والشارب، أو إتيان أية حركة تخلّ بحرمة المجلس. كالإشارة إلى زميل، أو الضحك أو الهمس...

يتولى مقدما النظام توزيع المهام، وتعيين الموكولين بها في الإجتماع الرئيسي الصباحي يومياً. ويعين خلاله الخبازين والطباخين، وكل القائمين بالمهام المترتبة من غربلة الدقيق، وفتل الكسكس وطهيه، وسقاية الماء على الدواب أو على الظهور (أعباء عقابية).

وأنواع الذنوب التي تستلزم العقاب في سيدي عبد الرحمن هي:

ترك الصلاة- الغياب عن الجمعية الصباحية- التغيب عن صلاة الجماعة ظهراً وعصراً ومغرباً. الغياب عن قراءة الحزب الراتب صباحاً ومساءً.

ومن دواعي العقاب الأشد، إساءة الأدب للغير مهما كان قولاً أو عملاً، أو إشارة أو كناية، ونفسه المدح فهو من المنبوذات عندهم. ومثلها مسّ مصحف بيد غير طاهرة، والدخول إلي مخازن المؤونة والنوالة، وأكل لقمة أو فتاة خبز أو حبّة تين أو غيرها. وهي كالمرور فوق أواني المعمرة أو إذاية حيوان المعهد من البغال والقطط المحمية بحصانة قانونية صريحة... والعقوبات في لغة القانون الداخلي والممارسة رهينة الذنوب والجنح في سيدي عبد الرحمن، وهي بدنية كالعقاب بحمل الأحجار على الظهر والتحطيب أو للسقاية بحمل القرب من عين بعيدة وإراقتها بجنان الزاوية أو ساحتها.

قد يشمل العقوبات المادية مبالغ تتراوح بين 6 فرنكات إلى 12.5، وإذا مانع المعاقب من دفع المبلغ عرض نفسه للمثول أمام (المجلس الخاص) ويكون القرار عندئذ الطرد والنبذ من الجماعة والمعمرة. وهو عار يلحق صاحبه إلى أبد الآبدين، ويشهر أمره في ربوع زواوة كلها... قرى ومعمرات وأسواقاً ومجامع.. كما لو حلّت به اللعنة. والعقوبات المالية يسلطها المقدم المتصرف (الثمن) وتوجد أنواع أخرى للعقاب، تبعاً للذنب والجنحة، وأخطرها تلك التي توجب الطرد مع أحراق الأمتعة(...) عند إتيان فاحشة السرقة أو عند الإخلال بالعرض أو الإعتداء على حرمات الجيران والزوار، حتى ولو كانت مجرد نظرة وكلمة مع امرأة بعين ماء القرية أو بالمزار...

ويعبر ابن زكري عن المطرود من الطلبة بأن كل من سعى في سبيل إعادته إلى المعمرة هو بمثابة المحتال بردّ الحليب للضرع!.

وكم هو مدعاة السخرية أن نرى أن مؤسساتنا الحديثة لا تكتفي برد الحليب للضرع، بل لمجاسة أخرى بتبرير الأنقاذ واعتبارات أخرى سخيفة.!..

الواجبات المكملة للدراسة:

- كل المعمرات مهما كان مستواها تفرض الخدمة الذاتية ولا تربّي صفة القصور والإعتلال لدى الطلبة... ففي سيدي عبد الرحمن، على غرار الزاوية المجاورة (ابن إدريس) تحيي المعمرة ليلة الجمعة* ، لكن حضرتها تقتصر عادة على ترتيل القرآن (سورة يس) بصوت مرتفع، حتى الهزيع الأخير من الليل، ترتيلاً تتخلله دعوات وابتهالات ومدائح، يعضدها مديح الإخوان الأجانب بالتناوب... لاسيما جماعة بني يراتن وبني وغليس وقشطولة... ليلة يتم إحياؤها بقبة الولي (الرمز) وهي عندهم ليلة مباركة يرغب فضلها وحضورها، إنها بمثابة نشاط ثقافي ترفيهي للنفس، تلطيف للجو الدراسي المضني والجاف، طوال الأسبوع.

فالتجويد كالتغني بالمدائح والأدعية بأصوات عذبة. وسط محفل عام يحضره الطلبة والجيران والزوار (الغرباء) كلها ذات تأثير لطيف عميق في النفس، وفي عمق المحيط... تسمو بالروح إلى مصاف النقاوة والبذل والصبر. وهي استمرار ووفاء لنهج الولي (الصوفي) عبر العصور مادامت تحيي دوماً في قبته وخلوته.

وحضور ليلة (الحضرة) إجباري، تبدأ بعد العشاء مباشرة وتتوالى الدعوات والإبتهالات لكلّ من له أدنى صلة بهذه المعمرة، وكل من تعلق بمعالمها من المحسنين بالكتب والأراضي وعيون الماء، وكل البنائين لدورها و المفلحين لحقولها والجامعين لأرزاقها والمشترين لأوانيها، والمعينين لها بالأرزاق والأموال والأقوال والمواقف، وكل الساعين لجلب المصالح داخلياً وخارجياً. ويدعى لكل مشائخ المعمرة من عهد الولي المؤسس بذكر أسمائهم متواترة. ماعدى إثنين منهم،

* القائمة لاحقاً...

فإنهما بحظيان دوماً، وفي كل ليلة خميس بترجمة وافية لحياتهما، وهما السيدان: العربي الخداشي ومحمد الطاهر الجنادي... وقد دونت الدعوات في العهد اللاّحق، في نظم رائع يردده خيرة الطلبة، من شعر(المقنيعي 1918)...
أمّا السيِّد العربي الخداشي (الجودي) قد توفي في داره بايخداشن، ببني يتورغ سنة 1272، بعد عمر طويل حافل بخدمة العلم ونسخ كتاب الله، ومن الشيوخ القلّة الذين تولوا إدارة الزاوية وعضوية دائمة في المجلس الخاص- الإثني عشر- لصفاته العلمية والخلقية، ونظراً لمواقفه ومقامه الطويل بايلولة، تولى بها شؤون الإستشارة، حتى وهو في بيته قعيد الفراش، بعد اعتزاله المشيخة، ولا ينفصل الطلبة في أمر من أمور الزاوية إلا بإذن وإشارة منه...
والأخداشي متمكن في علم القراءات ومعروف بنسخ القرآن، حسب الرواية المحلية، لكن شهرته تضعه في مرتبة مؤسس الزاوية علماً وجاه وورعاً وتقوى... «وسرُّ الولاء عرفانٌ قبل أن يكون ولاء!» ينتمي الأخداشي إلى أيت الجودي بإيخداشن، ويرتبط بقرابة أسرية مع محمد أمزيان ببوعيدل القريب من قريته، وهم جميعاً من ذرية الولي الصالح أحمد بن عبد الله صاحب أول معهد في زاوة، حيث درس الغبريني سنة 650هـ. وهو دفين بطن الوادي حيث يلتقي الروافد الأساسية الثلاث والأهم لسيباعوا(23)
والسيد محمد الطاهر بن محمد الشريف الجنادي، أيضاً عرف بمقام طويل شيخاً- كما اشتهر بكونه أول من مارس الإصلاح التربوي بالمعمرة. واستطاع أن يطور مناهج الدراسة، ويدخل علوم العربية والرواية، ويطور صناعة التدريس بإحداث الأساليب الحديثة منذ 1846. ويشهد ابن زكري له بأنه لم يغادر المعمرة حتى لم يبق في نواحي زواوة كلها إلا تلامذة وتلاميذ تلا مذته أكثر من 40 سن، ولكنه لم يوف ذكراً في (صناعة التدريس)!
غادر معمرة الأيلولي سنة 1283 هـ١ مهاجراً إلى تونس حيث يوظفه وزير شهم، ويجري عليه جراية دائمة حتى وفاته بها، ومثله قدم إلى زواوة مصطفى

برناز المعروف (قارة خوجة) مؤلف (بشائر أهل الإيمان)، ليدرس على الشيخ محمد الفاسي بزواوة وعلي أحمد عبد العظيم ومحمد بن صولة وقرأ القراءات السبعة والعشرة قبل 1726 بعد وفاة المؤسس بثلاثين سنة.(24)

وبرناز عاد من زواوة بعلم القراءات وعلوم العربية وكذا علوم المنطق والتصوف والأجرومية، وله كتب عديدة أثري بها المكتبة التونسية. وشهرة زواوة في مجال القراءات تحدث عنها ابن الفكون، وذكر لجوء محمد التواتي المراكشي من قسنطينة إليها في عهد أبي عبد الله محمد بن مصباح، من أجل تكميل علم القراءات على يد أبي محمد عبد الله أبي القاسم، وأكد أن زواوة كانت مركز جذب ومبادلة مع قسنطينة منذ أوائل القرن 11 هـ حتى 1063هـ. (25)

وللطلبة في العهود الأخيرة زجل يخلد محاضر جماعة من خيرة الشيوخ أمثال المجود الصفصافي والزيتوني العالم والقمقوم السياسي الحرّ، والبسكري الورع...*

قائمة المشايخ (القراء): مع صعوبة تحديد قائمة للشيوخ الذين مروا بعمرة سيدي عبد الرحمن، نقدم مسحاً بعد مراجعة الطلبة القدماء، وأعمال أبي القاسم البوجليلي والمعاصرين من أمثال السيد عليلي وعبد الرحمن المقنيعي.*

وهدف هذا المسح هو رسم جدول تقريبي عام، يحتاج إلى ضبط وترتيب وتناوب ، ولكنه يجمع كل الوجوه اللأمعة ذات يوم بهذه العمرة، وربما في فترتي الدراسة والتدريس، وفي مقدمة هؤلاء المذكورين عند البوجليلي حيث يسجل: (والجنادي قرأ عن الشيخ محمد بن يحي اليراتني، وقرأ عن الأخداشي والشيخ محمد بن علي الحرزوني الذي شهد له بأنه ماقرأ قراءة صحيحة حتى قرأنا عن الشيخ محمد بن علي لكونه نحوياً محسناً لصفات مخارج الحروف. كما قرأ

---

* مخطوط اعتمده في الأنساب

الشيخ محمد بن يحي عن الشيخ سيدي محمد بن بسعة (عم شيخنا محمد بن علي) وهو عن الشيخ عبد الله بن خراط، وقرأ الأخداشي عن الشيخ الصالح عمر أوزقان، ومحمد بن علي قرأ على أمحمد بن بذير الفوملالي، وقرأ الأخير عن ابن تريغت من بني يعلي. أما عبد الله بن خراط فقد أخذ عن الأخير، وعنهما معاً أخذ محمد بن علي ومحمد بن يحي اليراتين 33 ختمة عن السيد الحسين بن قرّي اليعلاوي. وهو عن الشيخ سيدي محمد بن عنتر البتروني من علي أوحرزون... ناسخ 99 مصحفاً وترك تمام المائة ناقصاً... وهو تلميذ سيدي عبد الرحمن اليلولي وصاحبه حياً ودفيناً.

وقرأ الشيخ الأيلولي على الشيخ امحمد السعدي البهلولي مع السيد محمد العربي الحرزوني البتروني. وكلاهما عن السيد عبد الرحمن بن القاضي الفاسي، ناسخ الدور اللوامع لابن بري، والمتوفي عام 1692 هـ.

أمّا سيدي عبد الرحمن الأيلولي فقد كانت وفاته 1105هـ 1693 م. وتوفي ابن الخراط في نحو 1145 هـ والسيد محمد بن علي ظهر يوم الخميس عام 1272 هـ ثم الشيخ العربي الخداشي (60 سنة) بعده وعند ابن زكري سجل تاريخ وفاته 1263 هـ، في حين أكد البوجليلي 60 بعده، والضمير غير مؤكد العودة إلي سابقه أو إلي شيخه...!

هذا ماسجله البوجليلي في هذا المجال، وهي أقدم وثيقة في الترجمة مؤرخة ومضبوطة في كتاب التبصيرة في علم القراءات...!

-الشيوخ والطلبة القراء-

إن الأسماء التالية عبارة عن مسح قابل للضبط والإثراء، ورغم ورودها في عدة مصادر، سواء منها المنشور أو المتواتر، فلا نقدمها كما لو كانت هيأة متوارثة للدراسة والتدريس بالمعهد. وهم:

الشيخ الحسين بن قري اليعلاوي

الشيخ صالح اليلولي
الشيخ ابن تريغت الفرڤاني الزموري
الشيخ محمد اويذير الفوملالي اليعلاوي
الشيخ الزيتوني المبارك وحفدته
الشيخ العربي بن الجودي الخداشي
الشيخ عبد الله بن خراط اليعلاوي 1275 هـ
الشيخ محمد البشير بن محمد السعيد اليعلاوي - بودوخة-
الشيخ محمد بن يحي اليراتيني
الشيخ السعيد الڤولميمي الخليلي 1858 شهيد معركة الوطن 1857
الشيخ أوسعة التقابي من أقارب محمد بن علي التقابي
الشيخ محمد واعلي التقابي 1272 هـ
الشيخ الطاهر المنيعي الجنادي من بيت سيدي منصور توفي بعد 1846
- أبو القاسم البوجليلي العباسي 1316 هـ
- الطاهر القيطوسي اليلولي الحضري أو (قام زيد). 1723 هـ
- محمد بن محمد واعلي التقابي
- الشريف الفليسي البحري 1336 هـ
- القاضي الصدوقي (بن الشيخ)...
- الصادق بن زكري الجنادي 1226 هـ
- الشيخ احمد الصفصافي بئر صفصاف العطاف- قبل 1918
- محمد بن عمره الأوزلاجي 1921 صاحب عمود النسب...*
- السعيد الأمسيوني الجنادي 1925 م
- الصادق أثنى تسلنت- بن سعيد-
- السعيد الزلاجي اليراتيني-
- محمد السعيد البويوسفي الجنادي من أسرة سيدي منصور وداوي أحم (27)
- محمد المختار الينيوي 1909 ثم شاخ في معمرة ابن الطالب...
-أحمد البويوسفي الجنادي 1361 أسرة سيدي منصور وهو داوي صاحب

الترجمة...

- السعيد بن علي البجري 1873/ 1951 علي بن السعيد...
- أرزقي بن السعيد أبو يعلي الزواوي 1952 عمره 96 سنة...
- محمد القاضي الصدوقي توفي 1966. بن الشيخ.
- الطيب الشنتيري البوجليلي العباسي 1943
- علي أوقاسي القلعي العباسي
- أحمد بن المقنيعي الغبريني 1292. 1365..
- الشيخ البسكري محمد بن أحمد
- الشيخ أرزقي الشرفاوي الأزهري (ابن القاضي) 1937. 1945
- محمد السعيد بن زكري الجنادي- المؤلف - 1914
- محمد الصديق البوثلمي
- عبد الله الصدوقي
- لحلو الخياري 1299- 1387
- عبد الرحمن البعزيزي المرازقي 1301- 1374
- الشيخ المولود الحافظي- الفلكي الشهير -صاحب الساعة الحجرية- 1966
- الشيخ محمد السعيد البجري (مومو) آخرهم بعد عهد مؤسسة تكوين الإطارات الدينية.

قائمة نقدمها لتلاميذ ومشايخ المعمرة، اختصاراً لاحصراً.... وهي قابلة للإثراء والمراجعة من الأفاضل، ذوو الإهتمام بالموضوع، أو من هم على علاقة وأواسر بأحد المترجم لهم أو بالزاوية والمعهد.

ومن قبيل الوفاء أن نخص شيخين جليلين بكلمة عرفان، وقد توليا التدريس بها، ورضياً بالعيش في هذه الربوع الجرداء الغبراء..!. كرامة وأثرة وورعاً... يؤثرانها عن العيش في كنف المدينة المعروض عليهما! وهما:

---

* يوجد الغالوس قرب البويرة أيضاً، إلي جانب فالوس يتورغ-
* عيال الله بن زكري أوضح الدلائل ص 90

الشيخ أرزقي الشرفاوي (الأزهري):

ابن القاضي الذي ينتمي إلى آل القاضي أمراء الشلام، في طور إمارة الفرع الثاني من أسرة كوكو 1618. 1700 العالم الجليل الذي ارتضى لنفسه منفى مشرقياً، بجوار الأزهر طوال 20 سنة، وقد عرف عنه أنه أقسم إلاّ يفتح رسالة تصله من البلد حتى يحقق مبتغاه العلمي.

أنهى دراسته وانتسب للتدريس بالأزهر، ومن تراثه الكثير في جرائد مصر، ومخطوطات أخرى بعضها منشور والبعض الآخر مغمور.

عرف عنه أنه صديق ابن باديس في مصر والجزائر، وقد اتصل به، وعرض عليه التعاون من أجل خدمة الجمعية والدين الإسلامي، واقترح عليه الإقامة بالعاصمة ورئاسة نادي الترقي. إلا أن السيد الشرفاوي آثر جبل أبلولة بزواوة بناء على وعد قطعه على نفسه، عندما تقدم منه وفد عن طلبة الزاوية يلتمسون منه المشيخة وعمارة الزاوية، وكان هذا حين وطأت قدماه ميناء الجزائر، حسب رواية الطلاب.

هكذا التزم الشيخ الجليل وعده، وتشيخ معززاً مكرماً في معمرة سيدي عبد الرحمن الأيلولي قرابة 8 سوات متقطعة بمضايقة تعرض لها في الله وفي العلم.

ويروي أحد المعاصرين أن الشيخ قد تعرض لحملة عداء نسجت حوله شبكة العناكب، من جماعة اشباه العلماء وما أكثرهم في القبائل، ويضيف أنّ أصابع الحاكم العام غير بريئة من أذاء الشيخ ومالحق به من عذاب تجاوز الفتوى بالتكفير إلى تحريش الولدان لقذفه بالأوساخ والحجارات، كلما مرّ بالقرية أو بمدينة عزازقة. وصدق من قال أن عادة هذه البلدان أن تضحي بالفحول.!

غير أن الباطل مع لؤمه يظل قصير العمر، رغم شدة وقعه، ورغم الإساءة العميقة التي ألحقت بشخصية العالم الجليل، فإن فتوى جامع الأزهر كانت انتصاراً له ولرأيه الفقهي، وفتواه في خصوص الربيبة يتزوج بها زوج الأم، وهي خارج الحجر، أو مطلقة... وقد اعتمد في الفتوى على رأي للإمام علي ابن أبي طالب، وفي القبائل لا يؤخذ بما هو خارج عن سيدي خليل... وهكذا كانت خاتمة رحلة العلم والمشيخة للشيخ أرزقي الشرفاوي عنوان التضحية ومثل المعاناة والعبرة، في مواجهة قوى الغرور والأنانية والذاتية، تتلظى بنيران الصراع من أجل الظهور، تتغذى من تجاوب المؤمنين عندما يشل مداركهم الجهل والقصور الفكري واللغوي، حتى على فهم مضمون الآية لغة وفحوى... لدى علماء وصفهم ابن الفكون في منشوره وأجاد.!. وفي هذه الربوع التي وصفها أبو يعلي المعاصر له بأنها حكم الجهل والخرافة والإنحراف الديني، سوق نفقت فيها الطباع وقلت الطبائع قلة الجواهر الكريمة، وهو يتحدث عن الطرقية مثله مثل الورتلاني قبله بمائة سنة...(28)

السعيد اليجري:

ثاني شيوخنا هو السعيد اليجري (علي بن السعيد). مثل سابقه، آثر العمل بربوع زواوة الشرقية وبأيلولة وتشيخ في معمرة سيدي عبد الرحمن، بعد قرية أمالو وغيرها، آثرها على منصب ضمن الهيأة العلمية للجمعية، صحبة فضيلة ابن باديس الذي زاره، كما طاف بربوع عزازقة وأيلولة وغيرهما: وقضى ليلة بزاوية الأيلولي...

تشيخ السيد اليجري على المعمرة في فترتين طويلتين ودخل مثل سالفه الشيخ أرزقي الشرفاوي في صراع شطط مع فئات أخرى من رجال الدين والشيوخ، والأعيان والأمناء على قراهم وأسرهم.!.

* كتاب محفوظ اعتمدناه أيضاً مصدراً لنا

وفي ظروف مع اختلافها عن تلك التي أحاطت بالشيخ أرزقي، فإنها لا تقل عنتا وعناداً وتحزباً بغيضاً، من جماعة لا تتورع في تسخير كل عالِ وعزيز لحماية مصالحهم الدنيوية. ولتحقيق أغراضهم الذاتية والخاصة. حتى ولو كان ذلك عالم العبادة والورع والتقوى والعلم بقلاع الزوايا والمعمرات (بيوت الله).

ولد الشيخ السعيد من أسرة متواضعة الحال سنة 1873 ومن بيت إمامة ومشيخة أباً عن جد منذ (أحمد واعلي) الذي تثبث ترجمة أسرية له أنه كان معاصراً لسيدي منصور ومصاهراً له في بناته... كما تشير الترجمة إلى نوع من التقارب بين آل واعلي والسلطة التركية.!.

كانت وفاته رحمه الله سنة 1952... وتنص الترجمة للأسرة على أن سيدي أمحمد واعلي بن موسى؟. انتقل من موضع يسمى (القالوس) من المنصورة،* كما انتقل منه إيحدادن وإيحيطوسن إلى موضع (سيدي موسى) جد أحمد واعلي بيجر- وهو على قرابة بموسى حيجب وسيدي موسى بتورغ، وربما كان ابنيه أو أخويه مع عمر أوموسى بتكانة لدى بني يحي مهد الإمارة.

أمّا عائلة إيحدادن فأصلهم من سيدي داود، ويوجدون في سور الغزلان أو الشلف، وهم على علاقة قرابة مع آل منيعة (داوي منيعة) أهل سيدي منصور الجنادي... و(موسى) هو الذي صاهر سيدي منصور في ابنته، وعندما كبر اليتيم (أحمد واعلي) استوطن أول الأمر (أيت عدلة) بعد استصلاح الأراضي بواسطة فلاح سمي (أجعوز)... وهو من يسر (الجعادة) أقطع له الأرض وأقام مع ذريته مجاوراً لأحمد واعلي بن موسى. وهذه الحوادث تعود إلى النصف الأول من القرن 17 م، عندما انتقل أحمد واعلي إلى توريرت أيت عمران... وكان صحبة أولاده مجموعة تلاميذ أقل من 20. وهم من حجيب أو باجو بني عباس بالقبائل الشرقية، ما يقرب العلاقة مع موسى تنبذار.

ولكن استمرار النزاع مع الجيران دفع به إلى أن يحالف (آيت يخلف) وعائلاتهم يومها أربعاً، اعتبر آل واعلي عائلة خامسة. يقاسمونهم الماء والمرعى والأرض.

ولذرية واعلي عند كبرهم شأن واعتزاز ببني جناد أخوالهم وعددهم 8 أو9 وهم على صلة بحامية تامدة التركية، كما تعضد جانبهم بعلاقات مع بني وغليس، لاسيما منهم (إيزروقن). ومع بني يتورغ- بتمزڤيدا- الرباط.

لكن تجدد الصراع والأمراض كانت عامل الفناء لآل واعلي، ولم ينج منهم غير علي الصالح علماً وأدباً، وهو أيضاً يتزوج من أخواله بسيدي منصور. كما أنه يسقط ضحية الثأر بدوره، عند زيارة أخت له لدى أولاد عمر بن الحاج... وبموته تندثر العائلة من ذرية موسى واعلي- أو تكاد- لولا أن الأم الأرملة كانت حاملاً عندما لجأت إلى بني جناد. وهي التي ستعود بابنها اليتيم بعد البلوغ. ومعهما وفد من فحول بني جناد، يسبغون عليهم العناية ويعيدونها إلى موطن الجد (أحمد واعلي) ومن الشاب تفرع (آل أحمد واعلي) الحاليين. من محمد السعيد الطالب الزيتوني. ناسخ كتاب في الطب بتاريخ 1112هـ 1700م.

إنه المترجم لأسرته (محمد السعيد بن أحمد علي بن موسى اليجري، والوثيقة ملك للعائلة. وتذكر الشجرة معاصرة موسى لسيدي منصور، وأنه قدم مع أربعة هم (سيدي منصور- سيدي موسى- سيد أحمد بن عروس وسيدي محمد بن الحاج دفين إيزروقن. في بني وغليس- باجو- وكلهم من القرن 12 هـ أي 17، قبل 1645- وتوجد علاقة قرابة بين إيحدادن وإيمنعيين من السور كما أن المرابط منصور استقر أول الأمر في زواوة- كوكو- أو تكانة...! ثم قصد تيمزار عند إيعكورن، لدى قريب له من آل الحسين أو آل يوسف كما في كفريات مخطوط عليلي.

الرسالة الإجتماعية لمعمرة الأيلولي:

في بلاد لم تعرف مرافق الإستقبال المأجورة، كالوكالات والنزل والفنادق، أو (القناقات). تقوم الزاوية مقام بيت الله، وهذه إحدى وظائفها الأساسية، تضطلع بما تعجز عنه السوق والقرية، مكانة تؤهل هذه المؤسسة للقيام بدور مركز إشعاع وإغاثة الروح والجسد.

إنها مفتوحة على الدوام أمام الفقراء والمساكين وابن السبيل- كائناً من يكون- وحتى الدراويش والغرباء، فهُم في عرفهم (عيال الله)...*

تحرس معمرة الأيلولي كجارتها الإدريسي على إقراء الضيوف وإيواء المعوزين والمنكوبين، فهي مقصد الزوار والإخوان كجارتها، جماعات ووحداناً، رجالاً ونساء- لا سيما يومي الخميس والجمعة ومناسبات الأعياد.

ينص قانون سيدي عبد لرحمن الداخلي على أن قراهم مضمون، ولو تم على حساب أود الطلبة، فهم أولى من المقيمين الدائمين. إنهم كقطط ودواب الزاوية يخولهم قانونها الأولوية في الأكل والرعاية والحصانة ... العناية... فلم يشهد التاريخ أن اعتدي على لاجئ إليهم.

وهذا قبل أن تولد الهيآت العالمية الرافقة بالحيوان والإنسان واللجوء السياسي... بل منذ 1600م.

حتي مرافق الزاوية لم تهمل حيزاً معتبراً للزوار وكل طارق بابها ليلاً ونهاراً.

كلما طرأت الحاجة إلى توفير غوث السابلة والقوافل، علماء أو حجيج، أو جموع قرى بني براتن وتشطولة وبني يعلي وبجاية ومجانة والبرج حتى السطيف... كلما تقدم مقدم الثمن عندهم (المتصرف المالي) لإعلان (الصيام)

---

* ابن زكري أوضح ص 90

برفع الصوت ثلاث مرات، وعندها يكف الطلبة عن الأكل، ومن كانت له ملعقة خارج الفم، أعادها إلى القصعة!. حتى يستوفي نصيب الضيوف!.

سنة حميدة تحدث عنها كل طالب المعمرة وشيوخها، وهي تحدث اعتيادياً، كلما قدم على الزاوية جموع وركبان وهم يأتونها من الغرب ومن الشرق، ومنهم الحجيج والرحالة والأخوان... ويصنفهم ابن زكري إلى [29].

- الأضياف: أهل الحكومة والمناصب الشرعية أو المخزنية والعلماء، والطلبة والأعيان. ووفود المصالحة.

- الزوار: مطلق الناس من الرجال والنساء والوافدين إلى الزاوية جماعات وأركاباً، ومبيتهم أمّا بزاوية ابن إدريس أو بخلوة سيدي عبد الرحمن.

- عيال الله: الغرباء والمساكين، كل من ألجأه الدهر إلى النزول بالزاوية، وألزمه الفقر إلى المكث فيها يوماً أو يومين. وربما شهراً أو أكثر، فهم ضياف الله ومن جملة عياله.. وللأيلوليين اعتقاد ورهبة تجاه هؤلاء... وقراهم مليئة بهم، لا سيما الدراويش والمعتوهين.!

نظام الأكل وأوقاته:

الكفاف والعفاف تربية وترويض النفس النهمة، فكم تشتد دهشة معاصر منا عندما يستعرض نوع الأكل بالزاوية، وتزداد دهشته عجباً وانبهاراً عندما يصطدم بحقيقة الكم والأعداد والتهيئة.

فالأكل يعده الطلبة (القداديش) ونوعه الدائم خبز الشعير أو الكسكس والتين الجاف... وأوقات الأكل ثلاثة:

1 قبل الظهر

2- بعد صلاة العصر.

3- بعد صلاة العشاء وقبل النوم

- للغذاء خبز الشعير وتين، أو كسكس مسفوف بالفول والزيت

---

* لقد بلغ مريدوه في القبائل أكثر من 10 عندما راسلوا الدولة الفرنسية الغريبة يقدمون شهاداتهم على أخلاقية وورع السيد بن عليوة صاحب الطريقة

- عند العصر تين وحده، أقل من عشر حبات!.

- بعد العشاء كسكس مسفوف بالفول والزيت.

نادراً تقوم الزاوية بإحياء ليلة الخميس بكسكس ومرق ولحم.

ولا يحدث هذا إلا ثلاثياً أو سداسياً، وفي مواسم أو عند التبرع المبرور، عند إقامة ابن علي الشريف بين ظهرانهم تبركاً.!

يروي طلبة المعهد عادة لهم في إضراب جد عجيب! إذ عندما يشتاقون إلى اللحم، يعلقون الملاعق على عتبة الباب، ويمتنعون عن الأكل!... يأتي مقدم الثمن، فيفهم حجتهم، ويعدهم بلحم يوم السوق. فينكسر الإضراب... ويوم السوق في أيلولة هو فقط يوم الخميس، سوق بوحمو، حيث يختص طلبة سيدي عبد الرحمن بأمكنة إستراحتهم ورباطات دوابهم وحتى المرافق المسموح لهم بارتيادها، بل يكلفون دائماً نائباً عنهم، ومثلها مثل الرحبة.يحيط بهم قانون سيدي عبد الرحمن من كل ناحية، وترددهم على المقاهي حرام، وتظاهرهم وسط الحشود ممنوع، والإستثناء الوحيد الذي يحفظه كل جماعة المعمرة هو للشيخ أحمد الصفصافي، المعفى من الإلتزام بقانون السوق.

آدب الأكل وتربية الطلاب الغذائية منصوص عنها قانونياً، فهي صارمة، تتحلى دوماً بأخلاق الإيثار والنساك وتنمحي أمام مطلب آخر هو غذاء الروح والأجر والثواب.

سألت يوماً شيخنا المرحوم محمد السعيد اليجري، لماذا لا يغدق على الطلبة مادام الخير وافراً حاضراً فأجاب:

إن القانون عندنا لا يربي الشحوم واللحوم، وإنما الروح والرجولة والشهامة والصبر والمعاناة، فنحن جميعاً جنود الله في وجه الزمن والنائبات، فاليوم معلوم وغداً غير مأمون، للزمن صولات.!. ونحن في هذه التربية كلنا متصولة، طريقنا الجوع، وقدوتنا مؤسس الزاوية.. عندما مثل بنفسه في خلوته الشهيرة (بتيزيبرت)، ثم غابة مزرانة وبني براتن. ومع أن رحاه تلقائية التشغيل فقد كان أولنا في هذا الطريق.

الموارد وجمع الأرزاق:

تتوزع موارد معمرة سيدي عبد الرحمن في أيلولة الغربية والشرقية، السوق، إيقرب، سيدي عبد الرحمن أقبو، لعزيب ويقال أنها تمتد حتى مجانة والبرج وقسنطينة والجزائر، لاسيما الخميس والعزيب وايت زيتون وبن خراط ومجانة.

يتمثل مردودها ومنتوجها في الزيوت والتين والحبوب والخضروات الجافة، ومن عادة عائلات أن تتكفل بخدمتها وفلاحتها، ومنها عائلة ابن علي الشريف وغيرها، مسجلة بأسمائها مثل عائلة ارزقي الشرفاوي -عدنان-

أمّا القيام على جمع المحصول وحراسته في المخازن والإشراف على نقله، فيتولاه طلبة سيدي عبد الرحمن بدوابه المعروفة (دواب الأحباس) والتي لا تحزم برادعها، والتي يحيطها القانون بالرعاية والرفق النموذجيين.

لهذه الأشغال مواسم معلومة، يتولاها الطلبة، في إقامات بالعزب والضيعات فيما يعرف عندهم بالتصييف مرة في العمر، وهي للحراسة في ضيعة العزيب... كما تعرف أخرى بالندهات أي (النفير) والمحظوظون فقط هم الذين يعفون من هذه (السخرة).

إنها تكليف دوري يمس كل الطلبة الكبار، وهي انتقال للنظام الداخلي حيث يتواجد الطلبة كجماعة (الندهة). مؤطرة بنواب عن المقدمين الرئيسيين، يشرفان على الجماعة ويسألان عن كل صغيرة وكبيرة أمام المجلس العام والخاص، وللمعمرة أربع ندهات في السنة. لجمع المحاصيل والتبرعات عبر القرى (الشحاتة)... وهي من الوظائف القانونية التي تضفي على الطالب صفة النملة ومهمة السفارة عن الزاوية في الخارج، تأتمنه على قضاء حوائجها وجمع أرزاقها وريعها، بما فيها المبالغ المتصدق بها للزاوية، منها (الشحاتة) وهي انتقال لطلبة

مثنى وثلاثا عبر قرى أيلولة ويجرو إيليتن ويتورع وايراتن وغيرها، التماس الصدقات في مواسم عصر الزيتون وجمع التين، ودرس الحبوب، أو في عاشراء.

إنها لا تحدث منتظمة، وإنما يلتجأ إليها في مواسم الفاقة والضائقة! وعندما تشح الموارد الذاتية... فالشحاتة إذن طارئ وليست رسماً دائماً. ولكنها عادة كل الزوايا، تلجأ للإستعانة بذوي البر والإحسان عبر كل القرى من أجل توفير النقص... فتتبرع القرى بدون استثناء على هؤلاء وبكرمٍ وأثرة، لأن طابع القرى العامِ كزواياها الفقر والفاقة، ولكن الجماعة هي التي تغني الفرد وليس العكس، كما يقال لدى القرويين!... وهي تدخل في (الدوري للطلبة نحو العرش وإيجر لعزيب والعباسية ومجانة)...

خاصية طلبة سيدي عبد الرحمن:

لطلبة سيدي عبد الرحمن الأيلولي خاصية على سائر الطلبة، وهي أنهم يرتدون (مرقعة غبراء حمراء) فوق أثوابهم، ويتظاهرون بها في المجامع والأسواق وبالزاوية، وهي ترمز إلي معدن الولي ومنبعه. (متصوف) عرف بالخلوة والعزلة والمرقعة حيثما حل وارتحل، وليسوا من تشكيلة أصحاب العكازة الخضراء والسبحة الباكورية عند ابن زكري* ويصرح ابن زكري في خصوص (المرقعة):

غليظة مستبطنة ببطائن عديدة، مخيطة بخيط كبير غليظ، حتى كادت أن تقف إن استوقفت؟ لما بها من كثرة المرقع والخيط. ويمتاز طلبة الزاوية بانتقاء اللّون الأحمر (الأغبر) للباسهم من البرنس والقميص والعمامة والمرقعة. ويرى للون المرقعة علاقة بتربة الزاوية الحمراء فعلاً.! لكن غيره يستند إلى هذه المظاهر ليتخذ منها براهين دالة على الإنتماء الطرقي (فالمرقعة، كالخلوة والحضرة والمدائح والأدعية والسياحة والصيام وروح قانون سيدي عبد الرحمن والأوراد...! كلها تؤكد الإنتماء الصوفي (الطرقي) لسيدي عبد الرحمن،

ولطلبة الزاوية... فيرى (هانوتو) ومن أخذ عنهم أن الطريقة قد غزت القبائل في العهد الأول لظهور فلول جيش الغزو الفرنسي 1830/ 1857. وقد تأثرت معمرة سيدي عبد الرحمن بالطريقة الرحمانية ومقدموها معروفون شيوخاً أم مريدين. وهانوتو لم يطلع على ابن الفكون الذي كتب عن 1030 حتى 1063هـ ولا عن الورتلاني قبل 1181هـ.

وليس الشيخ الحداد أول مؤثر في سيدي عبد الرحمن بواسطة تلامذته من أمثال محمد بن عميرة... وإنما كانت الرحمانية ثم العلوية(*) والدرقاوية، كالشاذلية والتيجانية (الزروقية) منتشرة في ربوع القبائل شرقها وغربها.(30) لا سيما عهد أحمد زروق البرنسي.

ولكننا لا ننكر تنوع الطرقية وغلوها تأثيراً وتغلغلاً في أعماق الجماعات المثقفة (كل الشيوخ والطلبة والبرادلة) ومع التنوع فالطرق تخضع لخليفة واحد يمثل الشيخ للطريقة من بين السبعة المعروفة في الجزائر والقبائل:

- طريقة سيدي عبد القادر الجيلالي (الكيلاني) من عهد أبي مدين 592هـ
- طريقة مولاي الطيب (الطيبية)
- طريقة سيدي محمد بن عيسى (العيساوية) بني يراتن
- طريقة سيدي محمد بن عبد الرحمن (بوقبرين) الرحمانية الخلوتية.
- طريقة سيدي أمحمد التيجاني- التيجانية.
- طريقة سيدي يوسف الحملاوي- الحملاوية.
- الطريقة الدرقاوية للعربي الجمل بواسطة باللّحرش الثائر آخر العهد العثماني، وهي تطور للشاذلية وفرع منها. ثم نبعت منها (العلوية) فيما بعد.

يشرف على جماعة (الأخوان) شيخ أو مقدم كما في زاوية أحمد بن إدريس. وقد ذكر البوجليلي 600 مقدم طريقة حتى السّوس الأقصى، وهو نفسه مريد الشيخ الحداد المتوفي في ربيع الأول سنة 1290.(31)

ربما تختلف زاوية سيدي عبد الرحمن عن جارتها، لكنها ليست غريبة عن التأثير الطرقي، وطلبتها ليسوا إخواناً ظاهرياً فقط! وإنما الحضرات والسهرات والسياحة والصيام والقانون الداخلي نفسه، يجعلهم من ضمن الحركة الإخوانية، جنود الرحمن سلماً أو حرباً، مثلهم مثل (18 مقدماً) الذين قادوا جحافل المجاهدين القبائل (25000) إبان الغزو الأول الفرنسي.

- وليس السلاح عند طلبة الأيلولي بعزيز، كما تأكدت لهم مواقف ومشاهد الصراع والدفاع عن الذات وعن الحرمات، وكلما أعلن النفير في الوسط الطلابي.

ولابّد من الإشارة إلي أن مدير الشؤون الأهلية (العقيد هانوتو) الذي زار سيدي عبد الرحمن سنة 1862 اضطر إلى مدّ الرجل في موضع الطرقية عندما ذكر (دونوفو) أن أصل (الورد) عربي دخل على اللاتينية ثم فرنس احتج العقيد (هونوتو) وقال متأنفاً وبلا أدب: ولم لا يكون العكس هو الصحيح... أي أن الورد (ORDE) (32) بمعنى الوردة باللاتينية، عُرب ، وأصبح الورد... ولكنه أكد بعض مظاهر الطريقة الرحمانية في سيدي عبد الرحمن كالخلوة واعتزال الناس والحضرة والسهر والصيام والذكر يوم الخميس كامل الليل ولم يذكر المرقعة وهي من صفات القوم، حتى قيل أن اسم الصوفة مشتق من الصوف والصفة... هذا قليل من كثير عن سيدي عبد الرحمن الأيلولي وجماعته وزاويته (القلعة) التي يؤهلها مكانتها وأهميتها وأصالتها التاريخية المتصلة الحلقات خلال 3 قرون إلى أن تصبح بمثابة الزيتونة والقرويين والأزهر... ولكن القصور التاريخي وعوائقه جاءت من الذين لا يتعلمون أو الذين يتعلمون ولا يكتبون أو لا يفقهون... كالذين لا يقرأون ولا يكتبون وكل من أسرع إلي أذهانهم النسيان أن علموا وقرأوا! فلم يكتبوا.!

هؤلاء جميعاً مذنبون أو أبرياء من المسؤولية الثقافية، ومن رسالة العلم والقلم، لن يقف التراث الوطني، غثه وسمينه، غير آبه بإسهام أحدهم مهما كان، زاخراً أو شجىً،

وهو يطلب المزيد؟ من المعاصرين!..فماذا كتبنا مما قرأنا؟ وماذا تذكرنا مما مرّ بنا؟ من وقائع وأحداث وملامح وملاحم، فردية وجماعية. إنها رسالة المقرئ والقارئ والقلم شاهد محتسب...

لا يضبط قانون سيدي عبد الرحمن الأيلولي المستوى الأدنى الدراسي المطلوب، كحفظ كامل القرآن أو نصفه أو ربعه مثلا، وكمعرفة القراءة والكتابة.

وليس هذا من خاصيات الزاوية لوحدها، بل المؤكد أن الإنتساب إليها يعتبر ترقية لمستوى، ثقافي واجتماعي أيضاً، ومع أنه تأهيل شبيه بالإنتقال الحديث بين الطورين الإبتدائي والثانوي في العهود اللاحقة. إلا أنه تمايز إجتماعي وتأشيرة للإنتقال من عامة الرعية والغوغاء إلى فائة محظوظة، وشريحة اجتماعية متمايزة بالعلم والدين والحياة الناعمة....

كما أن الدراسة بالمعمرة قد تتواصل أكثر من عشر سنوات، ولدينا حالات منها حالة الطالب محمد الطاهر بن محمد السعيد بن الحاج بيني منصور... فقد ذكر عندما ترجم لأسرته (تيفريت) ولجده أنه درس في زاوية سيدي عبد الرحمن الأيلولي على عهد الشيخ الطاهر التيطوسي المتوفي بعد 6 أشهر من انتسابه عام 1323هـ.

- ذكر أن دراسته تواصلت حتى 1343هـ وقد بدأ تعليمه الأول على والده، ثم درس في زاوية سيدي موسى تنبذار ثم درس على الفقيه الخليلي محمد بن عمره الأوزلاجي (الذي أجازه الإجازة العامة) فمكث بها حتى عام 1343 هـ طالباً ومعيداً، وربما مقدماً... وهو ناسخ شجرة الأسرة المنحدرة من محمد بن الحاج دفين تيفريت أخو عمر بن الحاج اليجري في التاريخ المحدد عن العشماوي ص (23، 39)...

- الإحالة والهوامش -

(1) عليلي (ح) جريدة الخبر عد 727 أوت 1991 وحلقات أخرى (26)

(2) الورتلاني حسين- كتاب الرحلة ص 37

3) البهلولي (محمد الطاهر) مناقب ابن علي شريف ص 11

4) مجموع الأنساب ككتاب التحقيق لابن فرحون...ص 87. الشعب أوت 1993...

6) ابن زكري- أوضح الدلائل... الهوامش 7. 8. 10. 11. 12. 14. 16. 17. 29

9) هانوتو - 1- القبائل والعادات القبائلية ج1 ص 44 ومابعدها

(10) العشماوي. مجموع الأنساب نسخة بن الحاج 1343 ص 43- 23 هوامش 8. 20. 21...

- البوحليلي (أبو القاسم) التبصيرة في علم القراءات ص 8. 11 هـ. 13. 31

18) جريدة الشعب أوت 93 10 ماي أحمد بن إدريس حلقة 2.

19) الرواية المحلية- الشعب ماي 93 ابن زكري - أوضح الدلائل ص 73

- ابن الفكون عبد الكريم- منشور الهداية... تقديم الدكتور سعد الله ص 45 هـ 25. 24. 19

22) وثائق إدارية تركية- ملكية الإبراهيمي عدد 10...

- أبو يعلي الزواوي- الإسلام الصحيح ص 54 ولاحق ...هـ 28. 27

* وثيقة بخط الشيخ الفاضل المقنيعي، وأخرى ترجمة محمد بن عمره لنجله الأستاد الصادق...

(مخ): تعني المخطوط أو التسجيل الرسمي إدارياً أو من تراث العائلات كالشجرات وأهمها تاريخ العشابو- فروع الأدارسة عبر المغرب العربي وزواوة...

[illegible]
[illegible] والجلالة [illegible]
[illegible]
القرن الثاني عشر
[illegible] الواقفة [illegible]
[illegible] عن [illegible]
[illegible]

[illegible]

صح (الله رحيلي)

سنه وكرمه مقام الولي الصالح القطب الواضح العظيم [illegible] الجليل
[illegible] الكريم الأرحم الخلاصة المرتضى [illegible] أو انتشر [illegible]
[illegible] بن ابراهيم أدام الله وجوده [illegible]
[illegible] عليك ونستر [illegible] عنك [illegible]
[illegible] الاصلاح حالنا وجمعنا مع احبتنا واولادنا
[illegible] عليك [illegible]
[illegible] كما عندك [illegible] ابدا الحديث [illegible]
[illegible] والكرامات [illegible]
[illegible]
[illegible]

أبو القاسم بن ابراهيم

الذاكرة التاريخية المشعة

من

القرن 18 (1710..1785)

أبو القاسم بن ابراهيم، الذاكرة التاريخية المشعة من القرن 18

أبو القاسم بن ابراهيم قاضي الإسلام ببجاية كما قال عنه الورتلاني الذي زاره في شهر رمضان 1740 وقال عنه صاحبنا العالم الصالح أبو القاسم بن ابراهيم قاضي بجاية. قبل الحج الأول للورتلاني 1153هـ 1740م.

من هذه الإشارة، انطلقنا عبر قنوات بحثنا حول تاريخ زواوة إبان العهد العثماني، إلى استكمال المعالم المطلوبة لترجمة المفتي، أبو القاسم بن ابراهيم.

مصادر البحث: ومع قلة المصادر المهتمة بشخصية ابن ابراهيم اللأمعة خلال القرن 18 فقد اهتدينا إلى بعض مراجع في مقدمتها كتاب أسطورة كوكو للفرنسي بيير بوايي من القرن 19 ثم كتاب زميل له جونفواف، ومراسلات أخرى أهمّها رسائل (أوكبتان ولكليرك).

أمّا المراجع العربية فنادرة في هذه الترجمة، فهي قليلة الإشارة لأبي القاسم بن ابراهيم، شحيحة في كل مايتصل بعلمه وافتائه أو قيامه بزاوية سيدي علي بن طالب، وهي تثري الموضوع من قريب فقط.

ملاذنا الكريم هو أسرة ابن ابراهيم، ولاسيما منها فرع كوكو لدى بني يحي، ومع غموض المرجعية التاريخية في القبائل عموما، فقد مكننا الصديق الفاضل علي ابراهيم من 9 وثائق مصورة عن هذه الشخصية البراقة الدور، المرموقة التأثير في هذا العهد.

إنها الوثائق التي نهلنا منها أكثر معلوماتنا (الجديدة)... دقة وضبطا، لاسيما في مجالات إدارة وتسيير زاوية كوكو المعروفة جدا في التراث الزواوي،

محضر مجلس قضاء ومصالحة سنة 1796 يورد ذرية تنحدر من يحي البطروني قبل 1212هـ المحضر السابق واللاحق.

بزاوية سيدي علي بن طالب. وكذا مجال العلاقات الإبراهيمية التركية، بالأخص منها تلك التي تؤكدها وثائق إدارية موقعة من طرف الباي محمد بن علي (الذباح)-شخصيا- والمتوفي إبان ثورة القبائل من بني جناد حتى بني يبراتن 1754. وهو الدفين يمين الطريق الوطنية (قورصو- بودواو).

كما تسجل الرسائل والتذكرات وجوازات المرور والأمان ثراء عجيبا لهذه العلاقات، فهي لا تترك شاردة ولاواردة إلاّ وتأتي عليها، رغم اختصارها وطغيان الأسلوب الإداري فيها.

فهي إذ نعثر فيها على أمثلة الصراع والثأر والإنتقام، ندرك أيضا انعدام الأمن ومحاولات السلطة فرض (الأمان) بواسطة المرابطين، وليس بواسطة المليشيا، حتى وإن تطلب الأمر منها الإعتراف بولاية ابن ابراهيم، أبو القاسم أو محمد الحسن من بعده...*

كما يتجلى خلال هذه الوثائق المصادق عليها في المكتب العربي بالأربعاء نات يبراتن...

وهي تعبر عن اهتمامات الأسر العلمية عبر زواوة، اهتمام بعالم الكتب والمكتبات، واكتناز المخطوطات ونسخها، وتداولها بين العلماء، والإخبار بها كتابيا عن مطالعة، كما تسجل (الوثيقة2).

نشاط يكاد يطغى عليه حب الإطلاع والجري وراء المعرفة، والتبرك بالنسخ النادرة، وحتى القسم الشرعي على إحداها في زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي (مخطوط مختصر خليل) أو النسخة المعروفة مصحف (أو معداش) في قرية مجاورة -أقوسيم...

وإلى عهدنا هذا، رغم ويلات الحروب، وسواد الجهل، فالأسر التي تدخر هذه الكنوز، لايكاد يشملها العد والمسح، لكثرتها، لاسيما بالقبائل العليا والشرقية...

أمّا النساخ فقد شاعت أسماء مشاهير هذه الفئة النبيلة من أمثال البتروني وابن عنتر والعربي الخداشي والشباح والمنصوري بن الحاج ومحمد علي بن يحي وغيرهم*...

ولعل أيسر العرفان أن نذكر الفضل لذويه، ونخص به أسرة ابراهيمي، ولولاها لما أمكننا كتابة صفحة واحدة حول هذه الشخصية الفذة، والفعالة في العهد العثماني الأخير، وبعد خبوة شعلة كوكو المملكة، بتفكك الأسرة وصراعات الأمراء حول السلطة، تلك الملحمات والفتن التي أمدت التراث القبائلي برصيد هام فريد، من المثل العليا والأمثال وحكايات الخير والشر ونماذج الأخلاق الفاضلة والأعراف الإجتماعية. لاسيما تلك التي تغذي حصانة الأسرة ونقاءها ورفعتها عن كل مشاعر الشطط الفردي والغلو العاطفي من عدوى الإعتداء قولا أو عملا، إلى زهق الأرواح ومايبعثه من موجب الإنتقام والثأر، الشرارات التي تلهب حروبا وكوارث تفني قرى بأكملها، وقد ذكر الورتلاني وبن زكري منها فتنة بني يني وبني وسيف دامت سبع سنوات وفتنة بني جناد وأولاد أورقاسي آخر العهد العثماني. والفتنة التي تشير إليها وثيقتنا العدلية (رقم10) وهي بين ثلاث قبائل، كان مثارها سد طاحونة يوبهير*.

وفي هذه الإنتكاسة يبدو دور المرابطين والشخصيات العلمية المحايدة أعظم وأنفذ من نفوذ كل سلطان، وحاكم وجنده. ففي تاريخنا حروب لم تشتعل ولم تخمد إلاّ وراءها أحدهم، حتى كان من غير الهين على الباحث فك اللغز القائم حول دور العالم ورجل الدين (الشيوخ والمرابطين) هل هو ديني اجتماعي أم سياسي تسلطي...!

-الشخصية المترجم لها خير من يجسم هذه الأدوار والأوضاع وما كان ليتأتى لنا ذلك لولا البادرة الطيبة التي مكنتنا من جمع وثائق تركية (نادرة) تغطي الفترة الممتدة من 1720 حتى 1796... حول هذه الشخصية، وحول أسرته العريقة، بامتدادات لها حتى 1844، و1871 حيث ظلت اسماء القضاة والعدول وكتاب الضبط والقضاة المستشارين وأقطاب الطرقية الرحمانيين، يتتابع يخترق الحجب الكثيفة لعهد الأمية والجهل لأواخر القرن 19، حتى أكد (هانوتو)أن القبائل بعد 20 سنة من الإستعمار! لم يعد يوجد من بينهم من يتذكر العرف ومواده، فضلا عن شرح النتف المتناثرة من القانون المكتوب، القديم..!

كوكو وابن ابراهيم وابن طالب:

ترتبط أسرة بن ابراهيم بسيدي علي بن الطالب بدرجة توحي بعلاقة القرابة بصريح تصريح الباي وقائد سيباعو. وهو جانب نثريه بعرض وتقديم نماذج من التذكرات، وقد ترددت أسماؤهم عند ابن عسكر في دوحته حين ذكر أنه قرأ على الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن على (الطالب) وذكر أيضا عبد الرحمن بن ابراهيم (أبو زيد) وهذا في حدود ماقبل 1578 مايشير إلى قدم أسرة ابن الطالب وآل الإبراهيمي.

والكلام على ابن ابراهيم وسيدي علي بن الطالب كلام يدفعنا للحديث عن كوكو نفسها، وعن ابن القاضي ملوكها في لغة الإسبان والأمراء عند غيرهم، والسلاطين عند الورتلاني وفي التراث..

أمّا الورتلانى فهو الذي يمد لنا يدا ويسير بنا عبر مسالك رحلة الحج الأولى والثانية.. تلك الرحلة التي سار ضمنها موكب السلطان الشريف بوختوش (بن القاضي) صديقه كما قال وأكد سلطان جمعة الصَّهريج حينئذ..

بهذا الزاد نقتحم عالم كوكو خلال القرن 18 وسنة 1767م. ليكمل نقص ما كتب الإسبان وغيرهم عن الجزائر التركية وعن إمارة كوكو وزواوة. وفي مقدمتهم هايدو ومرمول والهولندي لافيري. لكن التناول كان لغير الشخصية المترجم لها. وما تقدمه هذه المصادر هو فقط إثراء لها من زاويا المملكة، فهم لا يتعرضون لنواحي الزوايا وشخصياتها، ولايرون فيها غير الطرقية والتحجر الفكري، وهي نماذج لأديرتهم من القرون الوسطى حسب زعمهم.

محطة ترقفنا الأطول والأكثر إسهاما ، هي التراث الشعبي المحلي بمفهوم (ضمير الجماعة) في نواحي الخطاب والأسطورة أو (الخرافة) كما يقال، ومضرب

الأمثال الحية إلى يومنا هذا، وهي كلها مورد المؤرخ والأديب ورجل الفكر والحكمة عموما.. مورد لا يحرم منه الشيوخ والعجائز ومطلق الزواوة، وبدونه لايمكن كتابة أيّ تاريخ للمنطقة..لولا عقدة الابتذل والنقص!

أبو القاسم بن ابراهيم وأسرته:

ينتمي كما يدل الإسم إلى آل ابراهيم، وهم يتحدرون من سيدي ابراهيم دفين (أحنيف) وجد البهاليل في التراث والأنساب، وهو ثالث الجذور الأكثر انتشارا في زواوة إلى جانب ذرية سيدي بوزيد الشريف وسيدي عبد السلام بن مشيش.(1)

ويعتبر رين أولاد ابراهيم(ببئر غبالو) نبلاء من شجرة سيدي ابراهيم. أخوة مع أهل الهامل، المجال الديني لهم. وذريته موزعة بكثافة عبر القبائل والصحراء، ومنهم أحمد بن ابراهيم الشهير بعلمه وورعه شيخ يحي العيدلي، والدفين بهوبلي أزفون.(2) المحرفة عن الآبلي الشهيرة.

أمّا الولد الثاني فهو جذع شجرة عظيمة من أعضائها المشارفة البهاليل، وغيرهم، وينحدر هؤلاء من عبد الله ابراهيم بواسطة محمد بن عاصم الصغير بن عاصم الكبير. أحمد بن ابراهيم من سوس الأدنى انتقل إلى الساقية الحمراء ثم إلى (سبعة مذابح)* ثم بيت الله الحرام، وزار بغداد ثم القيروان، ونزل بمنطقة (بر الفكرون) ثم انتقل إلى بلاد (أحنيف) حيث يحط الرحال طوال 21 سنة.(3)

يوصي أولاده بالرحيل والتفرق على بلاد زواوة، وربما انتقل أحمد بن ابراهيم بناء على هذه الوصية إلى أزفون، واستقر محمد بعزازقة. وأحمد بمعاتقة. وامحمد ببني عمرو، وعلى بتقربوزت. ويحي بالدعراش. ويقول عنهم الورتلاني:

* قصة أحمد بن يوسف الملياني في كتاب الحاج صادوق.

ابراهيم ولي صالح، أحواله مرضية، أولاده مشهورون بالصّلاح أدرك منهم أهل الصلاح والعلم كالفقيه أبي القاسم بن ابراهيم...(4)

ويعيد ابن فرحون نسبه إلى: ابراهيم بن أحمد بن محمد بن مسعود بن يحي بن عثمان بن اسماعيل بن عبد الوهاب بن موسى بن عيسى بن عمر يحي بن عبد الله بن إدريس الأصغر بن ادريس الأكبر..الخ.

أمّا الشّجرة الرسمية التي نملك صورة منها لمحمد بن عاصم جد بهلول الشرفاء ببني غبرين (عزازقة) فهي:(5)

محمد بن عاصم الصغير بن عاصم الكبير بن أحمد بن ابراهيم بن امحمد بن عبد الرحمن بن عبد الكريم بن عيسى بن عبد الله بن سلامة بن جابر بن جعفر بن محمد بن أحمد بن علي بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر الخ... وهي غير الأولى، والاشتباه نابع من ذكر أحمد بن ابراهيم..!

وإذا اختلف في الفروع فالأصول واحدة. من بقايا الأدارسة بعد انهيار دولتهم في فاس وفي مراكش وتلمسان والأندلس طوال 200 سنة، دولة نزحت فلولها إلى زواوة التي لم تكن خاضعة لها، على غرار الفلول المرابطية التي اجتاحت البلاد، ولم تنضو تحت سلطانهم أبداً.

كما غذت عناصر أندلسية هذه الهجرات المسالمة والعلمية عبر زواوة لاسيما (أزفون دلس بجاية). فهي شبيهة بمهبط الشرفاء الواقع جنوب السوس الأقصى (الساقية الحمراء)...

عناصر لاذت بجبال زواوة وأحواضها ومدنها تحت ظروف قاهرة، ولكنها مؤكدة بتاريخ حقبة القرن 7 هـ ومابعده، وهي حقبة زوال الموحدين واقتسام المغرب بين الدويلات الثلاث(6).

إذا لم نحصل على وثيقة تضبط عصر سيدي ابراهيم فإن أبناءه وأحفاده تتوفر بشأنهم موثوقية كاملة من أحمد بن ابراهيم البجائي القاضي المالكي إلى

عبد الله بن ابراهيم فرع البهاليل العائدين للقرن 9 هـ والمعاصرين لسيدي يحي المتوفي سنة 886 هـ. وهو شيخ محمد بن بهلول بن عاصم الغبريني وصهره، وعلي بن موسى العاتقي... ولكل منهم زاوية وطلبة علم...

أمّا الفرع الذي ينحدر منه مترجمنا فهو أسرة آل ابراهيم. بكوكو... مقر إمارة بن القاضي، وحرم مقام الولي الصالح سيدي علي والطالب العائد للقرن 17م. وللأسرة نفسها فروع أخرى في زواوة وتونس وفي بجاية...

زاوية كوكو:

حسب ابن عسكر تأسست منذ القرن 9 هـ، وإلى هذه الزاوية يعود تواجد ابن ابراهيم، وبها شرفوا كما شرفت بهم، وهي الأسرة التي حالفت وواكبت قيام دولة كوكو وانحصار نفوذها واضمحلال سلطانها في كوكو(7). وأقامت في نفس رباط مقر الإماراة والزاوية حتى بعد زوال نفوذها. ولايستبعد احترازها من أي نفوذ سياسي وعسكري والتزامها فقط بالمشيخة والقضاء والتدريس. أي الدور الديني والعلمي والشرعي الذي يحظى عبر العصور بتبجيل وتقدير القبائل.

ولابد من الإشارة إلى نوع الروابط الحسنة والتقليدية بين آل ابراهيم والمشارفة، لاسيما منهم ذرية بهلول بن عاصم الغبريني.

الوثائق التي بحوزتنا لا تشير لميلاد أبي القاسم ابن ابراهيم، ولا إلى مايملأ فراغات نشأته الأولى ودراسته وحياته الإجتماعية، ولكنّنا تعرفنا عن عهد المشيخة لأبي القاسم على زاوية كوكو أو زاوية سيدي علي بن الطالب (رقم 4) وذلك منذ 1734. بينما حررت وثيقة عدلية باسم أبي القاسم بن ابراهيم منذ 1710 ومابعدها.

ويتجلى في هذا السند وجوده في كوكو المحتظنة للزاوية خلال القرن 18.. ولمدة خمسين سنة (1761/1710)(8).

بينما تعيد البلاطة التأبنية لقبر سيدي علي والطالب تاريخ وفاته إلى عام 5 من القرن 12 أي 1105 مايقارب 1693م...

ومن الوثائق التسعة يتجلى مستوى السيد أبي القاسم الإجتماعي، فهو شيخ الزاوية ومديرها، والعالم القاضي وشيخ الإسلام من ناحية، كما أنه من ناحية أخرى مؤهل للوساطة لدى السلطة التركية سواء كان ذلك باي تيتري أو قائد سباعو (رقم7) وحتى لدى المرابطين عبر زواوة.

يطرق بابه وتقصد خدماته لدى الأتراك عند القبائل، وللقبائل والمرابطين عند الأتراك فهو صاحب ولاية(...) وضع يستمر لأبي القاسم حتى سنوات 1761م. إذ ماتزال المراسلات والتذكرات توجه له وتحرر باسمه وشخصه بنعوت العطف والحب والإحترام، وبكل ألقاب التبجيل، ويخاطبه في إحداها كاتب الباي بكل تواضع (عارنا يلزمكم لا تتخلوا عنا؟..) والتذكرة من محمد بن علي (الذباح) باي تيتري...[9] الذي تولى قيادة سبباعو ومنصب الباي فيما بعد منذ 1736 حتى 1754. (رقم1) وفي التذكرة (2) نقرأ:"يسلم عليكم نائبه خديمه ويقبل التراب تحت أقدامكم -عبد الله- سبحنه، ويلتمس منك صالح الدعاء" وقع التذكرة مرابط سيدي علي بن موسى الملتمس لوساطة أبي القاسم بن ابراهيم شيخ زاوية سيدي علي والطالب.

وتشير الوثيقة (رقم 3) الحاملة لملخص تواريخ هامة ومصيرية منقولة عن مصادر لم يصرح بها، لكن الكاتب (ابن ابراهيم) أكّد وجودها عندما قال كما وجدت بخط أحد الفضلاء...

ورد فيها:

"توفي الشيخ القطب المتبرك به سيدي السعيد بن الطالب (المانجلاتي) نفعنا الله به لثلاث خلون من شهر الله شوال عام 1127هـ/1714م وتوفي الأمير سيدي عمر بن القاضي يوم الأربعاء بعد الظهر 13 من شهر شعبان سنة 1715/1128 وتورد أن الترك خرج من كوكو يوم الأحد من شهر الله ذي القعدة الحرام 1142هـ/1753م. وتوفي الفقيه الأجل سيدي عبد الرحمن

الخليفوني مدرس جامع الزيتونة بزواوة صبح يوم الثلاثاء المتم الثلاثين من شهر الله الأنور ربيع الأول سنة 1144هـ/1754م."

... وذكر الكاتب الناسخ كذا قيد بعض الفضلاء... ومع هذه المحطات المصيرية في تاريخ كوكو وزاويتها وفي كل زواوة والعهد التركي، التي ترصدها الوثائق بتجلة ناصعة لعهد أبي القاسم ابن ابراهيم، نشير فقط إلى أن المعني بعمر بن القاضي هو بوختوش وليس صاحب الأسطورة المقتول سنة 1618.(10)

وبإشعاع من هذه الوثائق يبدو عهد أبي القاسم أوسع كثيرا من فترته الزمانية، إذ يتناول أحداثا مصيرية تتعلق بكوكو عهد الإمارة، وأخرى تتعلق بفرع بني غبرين (1710)، كما تسجل وفاة أحد إخوة سيدي علي بن الطالب وهو المعروف (سعيد والطالب)..

ووفاة القاضي الخليفوني الذي تولى نيابة سيباعو ومشيخة زاوية سيدي علي بن موسى إلى جانب القضاء.

في حين توفر لنا وفاة عمر بن القاضي تذكيرا باغتيال السلطان المعروف في المراسلات الإسبانية وفي التراث المحلي وفي الوثيقة التي سجلها لنا داوي مدير معهد سيدي منصور.. ومجرد ذكر السلطان يعد انبعاثا لعهود بأكملها كما سيأتي...(11)

وتورد تذكرة (رقم5) بتوقيع محمد خليف قائدسيباعو نص أمان وحماية لصالح الولي الصالح، البدر اللايح سيدي بلقاسم بن ابراهيم وتنص في حزم «لا يتعرض له أحد هو وإخوته وطلابته وزياره.. يذهبون حيث شاءوا وأين شاءوا.. فلا يتعرض لهم أحد بسوء.. لا في الساحل ولا في الجبل(...) ومن تعدّى عليهم فلا يلوم إلاّ نفسه.. والسلام من المعظم الأرقى السيد القائد (محمد الخليف) بتاريخ 1161هـ الموافق 1781م».

وهذا التاريخ يعيدنا إلى ماذكره الورتلاني في لقائه القاضي أبا القاسم نفسه في بجاية، وفي شهر رمضان من سنة 1767. غير أن التعليل الوحيد، هو أنه كان يتردد على بجاية بصفته شيخ زاوية كوكو وقاضي الإسلام، لاسيما في شهر رمضان، كما يفعل كبار المشايخ وأقطاب المالكية والطرقية، لأن الوثائق التركية لاتجود بها لوجه الله عندما تنعته بالقطب الرباني وبالولي الصالح(12) والقطب اللايح... وتؤكد من جهة أخرى وجود فرع للأسرة في بجاية، ينحدر منه، بالرغم من مدفن أبي القاسم بكوكو ومقام الولي سيدي علي بن الطالب...

وتخصه الوثيقة (رقم6) الملتمسة "لصريح الوساطة من القائد على سبباعو إلى الولي الصالح والقطب الناصح الشيخ الرباني، شيخ الإسلام وقدوة الأنام سيدي أبو القاسم وابراهيم أمنه الله آمين....

ونصها «أمّا بعد فالمطلوب منك صالح الدعاء لنا لإصلاح الحال وبلوغ الآمال مع الله» وبعد قد أتى إلينا ماسكها (التذكرة) الوصية إليك، السادات المرابطين، عرّفنا بأنهم أمكنهم خوف الطريق..! لأجل السفر (...) والتجارة... الآن هانحن أنعمنا عليهم (وأعطينا) لهم الآمان، أمان الله وأمان الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا زائد إلا منكم والسلام عائد عليكم من الملتمس صالح (دعائكم). خدامكم وابنكم راقمها ألف سلام... وكتبنا عن إذن القائد السيد الحاج محمد نائب سبباعو عام 1136هـ 1724م. وهو التلمساني القاضي والحاكم.. (ماتزال أسرته تحتفظ بضيعة وإقامة في وادي عيسى -أمام المركب- وهي تتوارث القضاء حتى عهدنا هذا...)

«حفظ الله بمنه وكرمه مقام الولي الصالح، القطب الواضح، سيدي أبو القاسم بن ابراهيم (المشيخة) المباركة لزاوية الشيخ البركة سيدي علي بن الطالب (والطالب) أدركنا الله عنايته...»

ها نحن كتبنا لكم ولكل من هو تحت ولايتكم من الطلبة والزوار والخدام بأمان الله تعالى، وأمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أماننا، فلا

يتعرض لهم أحد، ولا لكل من تعلق بكم... فمن تعدى عليكم فلا يلومن إلاّ نفسه، فحسب الواقف على هذه التذكرة أن يعمل بما فيه(...) ولا يتعداه، ولا لكم علينا إلا الحرمة الشاملة الكاملة، وما نحن إلاّ أولادكم، وريشة في جناحكم(...) فلا تنسونا أبدا في دعائكم في جميع الأوقات فنطالبكم بين يدي الله تعالى، إن تخليتم عنا والسلام... وكتب عن إذن خديم أهل الله سيدنا محمد باي أعزه الله آمين... عام 1160هـ الموافق 1747م.

أمّا عن الزاوية فلم يكن بن الطالب هو المؤسس لها، فقد تأسست منذ القرن 10هـ حسب ابن عسكر وأبي راس، ومؤسسها هو عمر بن القاضي جد الأسرة الأميرية، المنحدرة من أبي العباس أحمد بن أحمد بن القاضي.

صاحب عنوان الدراية، وقاضي بجاية المتوفى ظلما عام 704هـ ببجاية كما أكد ابن خلدون(13).

ومايوفر لدينا الكثير من أسباب الإرتياح لهذه الوثائق ومثرياتها هي العلاقات الأولى للغبريني بمحيط كوكو وزواوة، حيث درس دراسته الأولى على شيخه سيدي علي تغالاط أو القوسيمي عام 650هـ 1250م.(14)

أمّا أبو راس الناصري فيؤكد أن أسرة ابن القاضي (أبا العباس) تولت المشيخة في زاوية كوكو، قبل العهد العثماني، ولكنه ينسبهم لمجاجة بواسطة محمد بن علي المجاجي (صاحب المغارسة الذي يعتبر أبا العباس من أصل أسرتهم.)(15) بينما يعتبرهم الكثيرون أدارسة مثل فيرو.(16) ويعتبر صاحب المرآة الجلية محمد بن رقية أولاد سيدي الشيخ المشهورين من المشارفة...

سيدي علي والطالب وآل ابن ابراهيم:

ماتوحي به التذكرتان هو احتمال وجود أخ مسمى (علي وابراهيم). وربما هو نفسه الذي سيخلفه على منصب مشيخة الزاوية، بعد استقراره ببجاية كما أشار الورتلاني منذ 1179 الموافق 1767.1765 (16).

أمّا التفكير في أن يكون السيد علي وابراهيم هو نفسه سيدي علي والطالب، فهو بعيد التصديق وضعيف المرجعية. فالمعلوم تاريخيا، ولدى النسابة أن ابن الطالب الذي نعته الورتلاني بالطامة الكبرى... معاصر للأمير عمر بن القاضي وابنه العائد من تونس أحمد بن القاضي (تونسي).وهو الذي اقتحم عالم الأسطورة والتاريخ المروي في القبائل والذي يعترف به التراث بدون مبالغة(17) سلطان تمورا «مفتاح تبورا» سلطان البلدان ومفتاح البيبان... والمعلوم أيضا في التراث المحلي أن ابن الطالب لجأ إلى كوكو نازحا من (تيزا)بأزفون «وهو عبارة عن (بودالي) من عيال الله ودراوشته، ورهبتهم كمكانتهم في القبائل وفي القلوب» فلا يتعرض لهم أحد ولا يحول دونهم ودون رغبة يبدونها، ولايرد لهم مسعى، حتى وإن كان اعتداء يأتونه بحكم أنهم (عيال الله وأحباؤه) حسب ابن زكري في أوضح دلائله.(18)

فابن الطالب إذن غادر اخوته وقريته مخيرا لا مسيرا، ولكنه مات كلالة، ولم يخلف ذرية لا في أزفون ولا في كوكو.. ماعدى الإخوة، تتكون منهم قرية بأكملها(تيزا) ولهم أقرباء في الربوع، ولا يبعد أن تكون هذه القرابة مبعثها وجود الجالية الأندلسية بأزفون (بني واندلوس) هكذا... ونحن نعرف أن فرع الطالبين الجوطيين هم من غالبية مهاجري الأندلس من الأدارسة...(19)

وعندما لجأ الولي الطامة إلى كوكو كانت إمارة مزدهرة، لأن نفس الأسطورة تذكر أن الولي حضر وفاة السلطان عمر بن القاضي، ولكنه أقنع ولده العائد من

أجل الإنتقام بقوة عسكرية من تونس، حطت رحلها حيث (بوبهير) شيخ فرع قبيلة المهلهل التوانسة...(20) أقنعه بالعدول عن فكرة الإنتقام، وهو الذي أحصي له أملاك أبيه. تلك التركة المتواضعة التي لم تغر الأمير الشاب، فتخلى عنها لصالح الولي بن الطالب، ولصالح ابن ابراهيم -أنصافا- هكذا ورد 27 قسطا لكل منهما، من كل الميراث والعائدات من المزارات والمشامل على الزاوية وعلى الإمارة (مقاسمة)... وجدير بالملاحظة أن مدفن بن الطالب وقف على عائلة ابن ابراهيم، ويقر لهم قانون كوكو بصريح المواد (منع الدفن بتاتا في حرم المقام على الجميع، ماعدى الأسرة)كما سيأتي..(21)

تذهب الأسطورة إلى أن أسرة ابراهيم قامت باقتسام الريع مع الولي سيدي علي والطالب، واحتفظت لنفسها بحديقة الأميرة، في حين كان من نصيبه هو قصر العدالة (مقر الزاوية الحالي) وقصر الأمراء...

وبخصوص الولي فقد سجلت بلاطة القبر المنقولة من طرف طلبة الزاوية أنه توفي في عام خمسة من القرن الثاني عشر 1105. ويشير النقلة إلى أن مابين الخمسة و(11) مطموس -خارق كما عبر- ولكن التركيز على الإطار الزمني، يرجع عن قناعة أن سنة 1105 هي الأكثر مرجعية لأنها توافق 1693. أي بعد 59 سنة من لقائه مع الأمير (أحمد تونسي) في سنة 1634م. وهذه تؤكد أن الولي قد توفاه الله بعد أن عمر وهرم، لأنه شاهد وحضر مقتل الأمير الضحية عمر بن القاضي في سنة 1618..(22)

أمّا العلاقة بينه وبين ابن ابراهيم، فلا تتجاوز رابطة طرقية، وخلافة القطبية في زاوية كوكو بعد وفاة القطب بن الطالب من طرف ابن ابراهيم...

بينما كان ابن الطالب بالنسبة للأمراء في كوكو بمثابة سلطة روحية وعصمة شرعية أمام الرأي العام الذي يعير التزاما أكثر للسلطة الخلقية الدينية والروحية على السلطان الإداري والسياسي...

ولابدّ من استشفاء سبب وجيه من وثيقة (داوي) هو محاولة امتصاص المعارضة، ومواجهة الخصوم الذين يتزعمهم الأحلاف من بني جناد بقيادة (سيدي منصور).. وهو أيضا مرابط طرقي كما تقدم..وسيدي علي بن الطالب هو الندّ الأمثل لمثل هذه الصّراعات الطرقية والدينية الخصومة المزمنة بين السلطتين..!(30) وهو أيضا من (دار ازفون) كما صرح القاضي العشابو

ويبقى وجود أسرة ابن ابراهيم مرتبطا بالإمارة الناشئة وبالزاوية عهد الولي وبعده. وكان استقرارهم بها مشايخة وقضاء وأقطابا للرحمانية كما في غيرها، أو عدولا وقضاة مستشارين أي رؤساء المجالس العلمية والإسلامية (افتاء وقضاء ومصالحات ورؤية الهلال)..

عرفت أسرة ابن ابراهيم فترات الشحوب وأخرى لامعة، كما أنها لم تتخل عن بجاية، بل حافظت على موطن القدم بها، حفاظا على الأرضية العلمية والقضاء والإفتاء. كما في عهد السيد أبي القاسم، المترجم له.

والذي يتجلى من الوثائق المعروضة ازدواجية القيام على الزاوية وأداء مهام القضاء في زواوة وفي بجاية، وقد سجلت لنا وثائق عدلية ندلي بها (لأول مرة) في حينها أسماء كثيرة ولامعة، عدولا وقضاة ورؤساء المجالس وكتابا عاديين ولكنهم أيضا القادة الروحيين لمجموع المجاهدين ضد الفرنسيين..

الإمارة وابن ابراهيم في الوثائق:

حسب رواية أعتمدها (بوابي) لسيدي يدير بن ابراهيم عاشت الأسرة في ظل الإمارة وعزها. ولكنها تميزت بنوع من الإستقلال المادي عنها. بل نعثر في هذه الرواية على أن الأسرة حصلت على تركة من الأمير العائد (أحمد التونسي) منذ 1634. وهي التركة التي كانت مساوية لنصيب الولي ابن الطالب، ويذهب بوابي في روايته إلى أنهم اخوته...(24) ولكن مايهمنا هنا هو أن الأسرة كانت متواجدة بكوكو رسميا منذ مقتل الأمير عمر بن القاضي، ولاشك في أن مجلس المصالحة الذي تنقل إليه الأمير في تلك الليلة المشؤومة، صحبة قاضيه من بني ابراهيم.. وقد ترصده القتلة بايعاز من إخوته خصوم ومنافسين على العرش، وهم بدورهم معتمدون بدعم المرابطين في مقدمتهم سيدي منصور... ولم تتورط أسرة ابن ابراهيم في هذه التصفيات والمؤامرات... فبقيت على محافظتها طوال القرن 17 تواكب التطورات والتحولات التي عرفتها الإمارة، ولكنها التزمت بالإقامة في كوكو لدى بني يحي، عندما قرر فرع (بوختوش) النزوح والإنتقال إلى أورير ثم الشلام لدى بني غبرين -الموطن الأصلي للأسرة-(25)

ولم يسجل عن آل ابراهيم أنهم دخلوا في صراع سياسي أو عشائري، بل إن ماتسجله الوثائق عنها أنها حافظت على حيادها، وعدم تأرجحها، بكل ذكاء، واقتصرت مهامها في كوكو عهد الإمارة وبعده على المشيخة والقضاء ورئاسة مجلس القضاء والمصالحة، وإعطاء الأمان وضمان أمن المرور لكل اللاتذين إليها، وهذا ماتثبته التذكرات التي قدمناها سابقا.. ولاندري سبب سكوت ابن الفكون الذي تناول قبل هذه القيادة الروحية للمرابطين والأقطاب فيما بين 1000 و1060هـ. وأوجه تعليل لذلك هو أنه التزم فقط بعصره في خصوص زواوة وبكل الذين ترددوا على زاويتهم بقسنطينة أمثال ابن الموهوب الذي أسهب في دوره كصاحب ولاية وأمان في زواوة الشرقية.(26)

أمّا العلاقة مع أسرة ابن القاضي الأمراء، فمع سكوت الوثائق التركية، لم تسجل أي جانب من جوانب الصدام والصراع، أو تردّي العلاقات، وربما كان حرصها تفادي مامن شأنه استفزاز المشاعر، وذاتية المواطنة لدى المرابطين. لأن العهد الذي تغطيه الوثائق عهد ثورات، ولأن محمد الذباح نفسه موقع الوثائق كان من ضحايا هذه الحروب، بوفاته في عدني لدى بني بيراتن في حرب مع صهره عمر بن القاضي بوختوش الصغير عام 1754م[27]

ومثل الوقائع تؤكد محافظة الأسرة على حيادها وترفعها عن الأحداث تحاشيا للإنزلاق في مهاوي السلطان، فتفقد بذلك احترام ونفوذ (الوساطة والأمان الأخلاقية)... لأن المؤمن لابد أن يكون مستوفيا لشروط الوساطة والتأمين، ومؤهلا لأن يحتفظ بعلاقات ممتازة مع كل الأطراف المتنازعة، ولأن انحيازه يفقده (التحكيم) الخلقي ويعرضه لعداء عدو العدو... فالمرابط في القبائل يقتحم الجبهة والدماء تتسايل من حوله ويتلطخ بها هو ولكن لاأحد يجرؤ على إذائه من المتقاتلين حسب شهادة العمدة أبو يعلى الزواوة في إحدى وقائع الحرب العشائرية في الصوامع(إحدى محطات الإمارة) اقتحمها للإصلاح والمصالحة أبوه.[28] ولعلها الصراعات المزمنة العائدة لسنة 1796.

ويعزز هذه الروية مكانة الأسرة المادية، إذ حافظت على الإكتفاء ولم تحوجها الفاقة إلى التنازل على حيادها، وهي التي كانت ذات مستوى مادي بامتلاكها لقبه الولي ابن الطالب الدفين بجانب أبي القاسم ابن ابراهيم... وموقعها حرم إقامة الأسرة، وليس ضمن إقامة الإمارة ولاموقع الزاوية. وهذا كفيل لوحده للدلالة على مكانة الأسرة من الولي ومن الإمارة معا، وهي المكانة التي رعاها لها الأتراك فيما بعد.

كما كانت الريوع العائدة من الزيارات والزردات والصدقات والعشور، كانت كلها كفيلة بأن تضمن لهف كل المحتاجين والمعوزين، والميسوري الحال على

السواء، وهم يلتمسون الأمان أو الوساطة أو المصالحة أو التقاضي الشرعي...

وفي خصوص المصالحة تؤكد وثائق عدلية بحوزتنا، من مصدر الصديق الفاضل علي ابراهيمي، ومنها توصية من مرابط سيدي موسى نائب سبياعو وقائد البرج التركي، وهي أغرب الوثائق المقدمة، والتي تنص على أن سي بلقاسم مرابط سيدي علي بن موسى يلتمس من أبي القاسم بن ابراهيم العون على أخذ ثأرهم من جماعة بني وسيف الذين يسيرون في أرضهم بكل أمن وأمان... في حين تحدق الأخطار ببني بلدهم(معاتقة) ولايأمنون الطرق في وطن بني وسيف..! وتطلب الوثيقة العون على الثأر الذي أمر الله به في قوله (إن النفس بالنفس) هكذا... وهذه دواعي الفتن عبر العصور المتوالية(29)

دلائل ووقائع تؤكد انطفاء وهج الإمارة وخلو العرش، وعدم تحكم الأتراك -المحاصرين في برج سيباعو- والمهدّدين بالثورات كلما هموا بالتدخل خيرا أم شرا وحتى العرف القبائلي يحاصرهم من هذه الزاوية!

ومع ارتباط التاريخ الحديث بالوجود التركي والإسباني حوالي كوكو وفي كل من بجاية والجزائر فيما بين 1634/1510م فإننا نملك عينات الخوض في العلاقات بين فروع الإمارة المنفصلة عن بعضها وبين كوكو وبني غبرين وجمعة الصهريج والصوامع وأسيف الحمام وتامجوط وتامدة وبني يليتن (تيزيت)(30). وهي كلها دلالة على استمرار نفوذ الإمارة من عهد أحمد التونسي بن عمر بن القاضي، المدعم من طرف أخواله التوانسة بجيش من قبيلة المهلهل (بوبهير)... في سبيل استرداد ملك والده المسلوب حسب روبين عام 1042هـ الموافق 1634م.

يعتبر أحمد بوختوش آخر أمراء بن القاضي، والجدير بالتسطير أن الاقامة الأولى لهذه القوة كانت بحوض منخفض (وادي الرمان) الذي يدعى حاليا (بوبهير) حيث تلتقي روافد سيباعو الآتية من بني يحي ويتورغ وايليتن وأيلولة

وبني زيكي وبوزڤان وبني غبرين... وتعود التسمية إلى عهد عسكرة الجنود التونسيون، ومايزال الموضع مقاما للزردات في كل مواسم عاشوراء وفي كل سنة، إحياء للأعمال الخيرية التي قام بها الأمير العائد (حسب بوابي)... وإقامة القبة بنفس الموقع تعني دفن أحد عرفاء فرع بوبهير من بني المهلهل وشيخ من شيوخهم.

يحتفظ سكان الناحية في الصوامع والسحانتة المجاورين وذرية سيدي مخلوف في تاجلت وكل بني يحي وأيت داوود بهذه الزردة يحيونها من فيء يتصدق بها أثرياءهم، لاسيما وأن بعضهم يشعرون بالإمتنان لبوبهير إزاء استقرارهم واستيطان حوض يعتبر أغنى أراضي القبائل الغربية وأخصبها. وإلى هذه الوقائع يعود استقرار بعض العبيد بالربوع، ومع انسجامهم مع البلاد فإنهم متميزون وقبائل اللسان، لا الحرفة ولا اللّون! وتؤكد الوثائق أن استقرارهم يعود إلى عهد علي خوجة الذي توغل في أعماق زواوة منذ 1720م. وحط حامياته في كل من مقلة والصوامع وبوبهير وتامدة وأغريب وعزيب عين زاوية وعزيب شملال (أي شمل العبيد) وبوغني وغيرها.

وهو أول عهد ظهور الأبراج والحاميات التركية لدى زواوة. (1720) (31)

وهذا العهد يوضح بجلاء أن النفوذ كان لفئة المرابطين وفي مقدمتهم ابن ابراهيم فيما بين 1720 حتى 1796. كما تؤكد الوثائق عجزا مذلا للأتراك في ضمان أمن المرور والتنقل عبر بلاد زواوة بغير وسطاء مشهورين من مختلف العهود.

وتنص وثيقة مرابط سيدي علي بن موسى (محمد بن محمد بن بلقاسم أن الأتراك قد سلكوا في آخر العهد سياسة ترقية الأعيان والمعارضة ضد الإمارة في كل من قشطولة، بعد إخمادهم ثورة عارمة قادها سي علي بوختوس الصغير 1757، حدث أدى لنهاية دولة بني غبرين..) (32)

ومنذ اضمحلال الإمارة عندهم، ارتفع شأن متولي أمور زواوة ونواب الترك في سيباعو.. وفقط سيباعو، ولا تسجل أية وثيقة قاندا آخر خارج سيباعو وبوغني ودلس...

في حين تذكر إحدى الوثائق أن متولي أمر قشطولة (قاسم بن محمد)شيخها، ملحق بدار السلطان منذ 1674، يدفع للخزينة 2000 صائمة، وعند ارتداء التنفطان 1000 إلى 1500 صائمة، كما يدفع للديوان 2200 صائمة وللعسكر 630 صائمة حسب تشريفات دونولكس...[32]

وقد تداول على قيادة برج سيباعو خلال الفترة الممتدة بين 1089هـ 1070هـ. (1660 حتى 1678)...

أمّا فرحات بن الصغير بن أحمد من جماعة أعريب، فرع الثعالبة فقد تولى سنة 1104هـ وهو المقصود في الوثيقة رقم3 التي تذكر مقتله في ثنية بومعان بالقبائل العليا. وتكنيه (باي فرحات) بتاريخ العشر الأواسط في رمضان عام 1727/1134م.

ويذكر أبو راس الناصري ثورة اجتاحت كل القبائل في 1757، وامتدت حتى تنس، وهي الثورة التي ذكر ابن حمادوش، من تقديم الدكتور سعد الله، أنها اشتعلت منذ 1754 أي 1158هـ...[33]

وحتى لا يطغى على نهجنا أسلوب وقدر في السّرد! نقول أن العهد الأخير من القرن 18 شهد اضطرابا عاما في الحياة ببلاد القبائل، ماشهد به الورتلاني، كما اهتم بصعود وتنامي دور المرابطين والطرقية... فالمرابط منصور الفليسي يهدد الداي بالثورة، متضامنا مع حسن باشا[34] المخلوع اللائذ بجامع ويلي، فيتراجع الداي، ويفسح أمامه سبيل النجاة سنة 1788. وهو تاريخ مايزال يحفظ لنا نفس الدور لأبي القاسم ولخليفته محمد الحسن من بعده حسب وثيقة مصالحة ومحاكمة مؤرخة في 1796م. وأخرى بتاريخ 1785...

سنة اقتدى بها الفرنسيون إبان غزوهم للبلاد، فقد حاول الجنرال يوسف مثلا التفاوض مع بني ييراتن بواسطة المرابط أحمد بن مجدوبة ابن الولي منصور من بني ييراتن في 1857 وقبله سعى بواسطة السكلاوي شيخ أومالو لنفس القبيلة، أحد القادة الأتراك على سيباعو...

عهد لانكاد نسمع خلاله عن الأمراء، إلا عندما يتجدد لهم ذكر (آخرهم) على قلم الورتلاني إبان آخر رحلة الحج سنة 1179هـ 1765م. ويعزز ذكره بأن المعني محمد بوختوش هو سلطان جمعة الصهريج (قرية) وله إقامات في الصوامع وغيرها، وهو المتوفي في طريق العودة من الحج بين ينبع ونقب على سنة 1766م[35]

وبهذه الإشارة يفتتح عهد لانسمع فيه إلاّ بأسماء أولاد قاسي في تامدة وزعموم في ڨشطولة وسيدي الجودي علي بني بودرار وابن علي شريف على إيلولة والصومام.

عهد تشرق خلاله شخصيات من أسرة ابن ابراهيم من أمثال الحسن واسماعيل ومحمد الصغير وبذير، كما احتفظت زاويتهم (بن الطالب)على لمعانها وقيادتها الروحية والعلمية لزواوة رعايا الإمارة

بنو ابراهيم رمز السلطان في الوثائق:

الإمارة التي واكبت قيامها وزوالها، والمترددة على السنة طلبتها من خلال الآية الكريمة (تؤت الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء)...

ولكن النهاية لم تكن إلا استمرارا للأسرة، وسطوع شمس شخصيات أخرى كأبي عبد الله المزري بن ابراهيم (المفتي) عام 1785م وهو رئيس مجلس القضاء، والكاتب لوثيقة عدلية مرفقة، كما يتكرر اسم أحمد بن ابراهيم من ضمن الموقعين على قرار ميراث المرأة سنة 1748م، ومثله السيد محمد الصغير بن ابراهيم عام 1845. والشريف سيدي محمد الخيضرين ابراهيم الملقب بالقاضي المستشار في (1269هـ 46/1845)، وكاتب المحضر هو الخيضرين بن عمر ابراهيم.. ولا غرابة في هذه الإستمرارية لأن الهيآت الإدارية والشرعية لم تتفكك حتى بعد 1857... ولايمكن السكوت عن المجاهدين في الله وفي سبيل الوطن، كالذي صلى بجيش المجاهدين قبل بدء المعركة المصيرية مع حلول جيش يوسف ولالماند عام 1871 وهو من آل ابراهيم (أحمد بن ابراهيم) مقدم الطريقة الرحمانية حينئذ...

وفي 1845 ماتزال الوثائق تحمل مقاضاة أشخاص في الأسرة وتوقيعهم كما تشهد بذلك وثيقة العفو على (الرقبة) الثأر من خصوم مصرح بهم[36]

والكاتب هو الشريف محمد الصغير بن ابراهيم، وأهم مافي الوثيقة هي الأسماء المترددة فيها من المسمى (العامر بن عودية) نايت وادفل من عدني. وحامل الهدايا -براءة ذمة وديّة- نايت علي رمضان بني مخلوف من قرية أيت سعيد أوزڤان بالأربعاء أيضا، وأوصى الهالك على تنفيذ إرادته (السيد الحاج أيث عثمان) وأشهد على الوصية الحاج حامل القرآن سيدي الحسين وانوغي،

وسيدي محمد بن بلقاسم، وسليمان بن علال وأحمد بلقاسم، والوصية معروضة بنصها على مجلس قضاء ومصالحة من زعماء أقروا وصية التخلي على المطالبة بالرقبة مقابل مبلغ معلوم لفائدة الأيتام قدره 600 ريال...وتمت المقاضاة في مجلس التأم بقرية عدني الشهيرة.

وحضر الدفع والعفو القاضي المستشار الشريف محمد الصغير بن ابراهيم(37)

التراث القانوني:

ولعله من الأهمية بمكان ومقام تلخيص بعض مقاطع القانون الذي يثري ترجمتنا للأسرة وللإمارة ولسيادة الشريعة المالكية السنية بزواوة، والذي كان ثمرة تواصل جهود العلماء منذ عهد الإمارة في كوكو. ولعله من الشيق جدا أن نعثر في مواده على جوانب تضيئ مكانة المرأة. ومواد أخرى تولي العناية والحق للأجانب، وأخرى تذكر الإقامة لرعايا كوكو في قسنطينة وسوق أهراس (هكذا) ويتناول قانون جماعة كوكو 47 مادة تغطي مجالات:

مداولات الجماعة وقانون بيع الأراضي والشفعة والغرباء والرهن وكيفية بيع الرهن في السوق، وحق الشفعة، وقانون الوزيعة (تمشراط) والتدين وطرق تحصيل الدين، وحرمان الدفن في الجامع (مقام الولي ابن الطالب وابن ابراهيم)... وفي المعمرة. ولا يحرم ذلك حيث مدافن الإمارة!

وفي قانون كوكو لاترث المرأة ولكنها معوّضة مدى الحياة بالكفالة لباسا وأكلا وإقامة، من الميراث المكفول عند الإخوة لغير المتزوجة وللمطلقة على السواء.. ولا ذكر مطلقا لإسقاط الحق في كوكو..!(38)والمادة 15 منه تضبط ميراث المقتول ظلما ومُتلكات القاتل، وحالات العراك والمقاضاة والإعتداء بالحجر والعصا والسيف ومجرد التهديد، والعراك بالأيدي، ومحاولات الفصل بين المتعاركين وتفريقهما.

تقر المادة 24 اليمين وفق الصيغة القانونية (البينة على من إدّعى واليمين على من أنكر) وكذلك قدسية العناية (الأمان) بصريح المادة 25 وهي لأسرة ابن ابراهيم وكافة القرية ملزمة بها.

ويتوقع القانون روادع حالات كثيرة منها العراك أمام الجمع، ما يحدث اعتياديا. والحكم بناء على المتعدي الأول والمستفز لفظا أو إيماءا أو عملا. وتسري المادة حتى على الإناث وعراكهن كلاما أم فعلا، وكذا عراك الرعاة في المراعي العمومية والحقول، وحوادث الضرب المتنوع...

وتنص المادة 32 على أن قانون كوكو يسري على الأجانب الكثيري التردد عليها، وعلى مقام الولي وأسرة ابراهيم، الزوار والطلاب.

ولكن المادة 34 تنص على منع المثول أمام العدالة والإدلاء بالشهادة.. ولهذه غرابتها، إلاّ إذا كانت الترجمة هي الناقصة أو تخص العهد الفرنسي فقط... لأن السائد خلاله لا يلتجئ المسلم إلى محاكمهم..

يختتم القانون بحالات السرقة خلال المواد من 45 حتى الأخير... وكذا اتلاف النبات والشجر، وقانون الحرائق، وهو صريح وقائي، ومتى قام مالك بإشعال النار في حقله تعين عليه إنذار الجيران، ولا يبادر بالإشعال إلاّ بحضورهم، وإن فعل دون إنذار مسبق وفي غيابهم، وأتت على مُتلكات الجيران يغرم 10 ريالات ويعوض الخسائر اللأحقة بهم (الريال=2.5 فرنك في 1864).

ولا بد من الإشارة إلى أن قانون (جمعة الصريح) الساري على كامل بني فراوسن، وهم من ضمن دائرة (إمارة كوكو) يشرع اللجوء إلى التقاضي والمحاكمة لدى السلطة، ولم يعرف هذه السلطة ولا زمانها. في المادة 50 عكس المادة 34 من قانون كوكو. كما يضبط قانون الجمعة التعامل مع الخماسة وحوادث الثأر والقصاص وحقوق الوالدين وحصانة الأمان والأمانة (وديعة) والجمعة، ونعثر في هذا القانون على خطر تجارة الكحول والكلور.. والإعتراف

بالسلطة وعدالتها والتقاضي إليها، يبقى أهم ذكر بنير دربنا في سبيل تأكيد العلاقة بين الإمارة والسلطان والرعية في قرية الجمعة التي شهدت آخر سلطان لها في 1765م.

وقانون الجمعة جاء أشمل وأعمق فقد تناول حالات الزنى واغتصاب العذارى، والحمل اللاأشرعي، وحرمة الصيام، وتداول النقود المزوّرة، وشروط المكيال والميزان، وعصمة السوق وقانون التسعيرة والتصريح الكاذب (المراباة) وبيع لحم الميتة، ومواده 94 مادة.(39)

وفي قانون شرفاء (إيغيل يكن) يحرّم اللّجوء إلى السلطان (هكذا)... من أجل التقاضي والمحاكمة والتظلم، ويقدّر قصاصا كبيرا لمن أتى هذه الفعلة. وهي في دائرة تشطولة، والسلطان هناك هو قائد بوغني ثم أولاد زعموم من بعد قاسم بن سعيد...

ويمتاز قانون الشرفاء بتنصيصه على واجب الضيافة للطلبة (الشحاتين)، طلبة زاوية بني اسماعيل، وهو أهم بعدد مواده (126)... وأوضح وأكثر التزاما بالشريعة التي تنص المادة 30 منه على حرمة الحدود الشرعية كلها وروح الشرع، وعلى إجبارية التعليم في المادة 37...

تخلد إحدى هذه الوثائق عقدا شرعيا محرره هو أبو القاسم بن ابراهيم بتاريخ 1146/1734 وموضوعه هو تخلي إمرأة (فاطمة بنت يحي بن علي) على نصيبها من الميراث لصالح الذكور ابنيها (اعراب. بلقاسم) وهو 1/8 من تركة زوجها الأول محمد بن عبد الله و 1/8 من تركة زوجها الثاني محمد بن مسعود وعلى صداقيها من الزوجين. كما تخلّت ابنتها مريم بنت يعقوب على 1/2 من تركة زوجها و 1/8 آخر وقطعة أرض.

وقع التخلّي أمام الشّهود والكاتب أبو القاسم بن ابراهيم -القاضي- وتثبث بهذه الوثيقة مكانة (بني ابراهيم) الذي حررت المراسيم الإدارية التركية باسمه من 1734 حتى 1760.

كما تسجل مداولة بني واسيف سنة 1748 المتعلقة بميراث المرأة أسماء الشيوخ من المبجل محمد بن بلقاسم عن بومهيدي (واسيف) والمبجل الحسين بن القاضي عن بني صدقة (الشريف).

كما يتردد اسم أحمد بن ابراهيم والعاقل محمد سليمان والطالب عن قرية أيت عمران لدى أوقضال...

وحتى أواخر القرن 18 كان رئيس مجلس قضاء الأربعاء هو أبو عبد الله محمد المزري بن ابراهيم وهو الموقع لإحدى الوثائق الصادرة عن المجلس القضائي. وصيغة الحكم هي اقرار حق زوجة في بقرة مهداة من أسرتها إثر زيارة لوالديها بعد الزواج (...) كان الزوج قد قاضاها فيها وطالب بها مدعيا أنها مهداة له كمقابل للهدايا التي أعطاها للعائلة أثناء الزيارة. وتاريخ هذه الوثيقة هو 1785. 1199هـ ويتضح هنا أن خليفة أبي القاسم بن ابراهيم هو محمد المزري بن ابراهيم لأن شهادة الورتلاني على وجوده في بجاية تعود لسنة 1766.1767...

ولكن الخراب الذي أحدثه الغزو الفرنسي فيما بعد، وفقدان الذاكرة التاريخية تدريجيا سمح (لهانوتو) بأن يشهد بأنه بعد عشرين سنة فقط غدا من المستحيل إعادة وضع قانون العقوبات الذي كان سائدا ومطبقا في بلاد زواوة وكوكو، عوض النسخة التي رأيناها كاملة سالمة.

حيث يعثر الملاحظ على النادر من حطام الوثائق الممزقة التي عثرنا عليها، أمام أجيال عاجزة حتى على مجرد الشرح والتعليق لهذه الوثائق. ولكن أكد وجود بقايا ونتف من النصوص القديمة عبر عنها (الهيروغليفية) من التقاليد المخربة ومن الشرائع المتداعية للإنهيار ولعل المادة 5 من قانون جمعة الصريح وبني فراوسنى تعني بالسلطة التي تشرع اللجوء إليها من أجل التقاضي والعدالة... تعني مجلس القضاء المذكور منذ سنة 1785. في حين تقر المادة

52 من قانون تميزار عقاب الرافض للتقاضي أمام الحاكم بغرامة قررت بريال يدفع للجمعة القائمة على تطبيق هذا القانون.(40)

وهذه الوثيقة وعرضها يندرج في جهود نفض الغبار على أهم منابع الثقافة العدلية والقانونية التي سادت بفضلها مدرسة العرف ترباويا داخل المجتمعات القروية.

وسيادة هذه التربية عبر العصور الإسلامية هو الذي دعم الفكر القانوني العرفي في ذهنية الفرد وفي أذهان الجماعة. لأنه يعني تماما أن أية إدانة صادرة عن مجلس قضاء أو مجلس مصالحة أو جمعية القرية، ولو كان تغريما رمزيا... يعد إهانة وعقابا لايستصيغه غير قليلي الأدب والأصل... وهو مفهوم الوازع والرادع التلقائي الذي لم يعد مع وجود سلطته من الضروري وجود أي سلطان أو جهاز أمن أو شرطة بلدية وسلاح... وهو مستوى حضاري يندر له مثيل..!

تعليق على محضر مجلس القضاء والمصالحة:

الوثيقة ثرية بالجانب البيوغرافي والتاريخي، والأنساب. وهي المعلومات التي فصل فيها المحضر الكامل في هذا الشأن، والذي يترجم بصدق العناية والجدية التي تتجلى بها العدالة وهيأتها مجلس قضاء أو مجلس مصالحة كما في المحضر.

ولا أخفي على القارئ الدارس أني ابهرت أيما أبهار بالدقة في التعاريف وثراء المعلومات التي من شأنها التعريف بأعضاء المجلس وبالخصوم وقراهم وأسرهم وقبائلهم وأصولهم.. وبالكاتب الذي هو من بيت المصامدة.

ولم تهمل الوثيقة رغم أنها لا تتعدى 24 صفحة بالخط الكبير تسليط الأضواء، وربما لأول مرة من داخل القبائل التي كانت يوما مقر سلطنة كوكو بني غبرين وجمعة الصهريج، حين سلطت الضوء على المآسي التي اثمرتها الوقائع والنازلات، المطروحة أمام مجلس القضاء ومجلس المصالحة بسيدي علي بن الطالب سنة 1796. والحوادث تعتبر انبعاثا وانتعاشا للفتن وويلات الحروب القبلية والعروشية ولإسالة الدماء (الكارثة والدمار) حسب تصريح الوثيقة ماجذب أهل الخير والمساعي التصالحية، من القبائل الثلاث (بني بوشعايب بني يحي بني غبرين...)

ويكمن الدعم القانوني والتاريخي لمجلس المصالحة في كونه، اعتمد على وثائق إدارية ثبوتية من عابر الأزمان، ورسوم الملكية موثقة من طرف دواليب القضاء الإسلامي...

ويعترف رئيس المجلس بأن المعنيين كلهم أدلوا بهذه الوثائق التي يتضمنها ملف القضية، وهذا ما يثبت ويقلم من ذلك العصر وماقبل 1796، أن التقاليد

الإدارية فيما يتصل بالملكية وتسجيل الوصايا، ومايتعلق بالوراثة وكل المرافعات والنوازل، تقاليد عريقة، وأن القاضي الإسلامي كان هيأة لوحده، وأن المجالس هي المحكمة العليا وقد عرفتنا الوثيقة بشخصيتين لامعتين عن العهد وهما:

- القاضي المتراس لمجلس القضاء الأول: الشيخ سيدي امحمد الطيب بن سعيد.. مدعما بشخصية ثانية (عدل) والمحترم سيدي امحمد السعدي من بيت بوعزيز عائلة (ايبون)..؟

أمّا المجلس الثاني (مصالحة) فيترأسه الخليفة على زاوية سيدي علي بن الطالب ومقامه المبجل.. وهو شيخ هذه الزاوية في تاريخ انعقاد المجلس سنة1796.

وهذه التقاليد تمثل عراقة وأصالة الجهاز القضائي، ليس فقط في العاصمة والمدن مقرات البايات وإنما في عمق جبال وأحواض البلاد وفي قرى مثل تجلت، تاقة وايڤر يد ميمن، وقرية كوكو العريقة.. ويكفي رداً مؤدبا على الفرنسيين الذين كتبوا عن هذه العصور وادعوا بأن الملكية كانت جماعية ولم تكن هناك ملكية قط...

وهذا لتبرير استيلائهم على الأراضي الخصبة لحوض سيباعو بعد صدور قانون (سيناتو كنصولت) 1863.

والمحضر الممضي في 15 ذي القعدة 1212هـ الموافق لـ25 جوان 1796 هو أكبر دليل، وهو الإثبات لوجود ملكية فردية أسرية منذ عهود سحيقة وقد عبرت عنها تسجيلا وتوثيقا وشرعا وفق فقه خليل في مختصره كما أوضح كاتب المحضر (المصمودي)من بيت مصامدة بني بوشعايب.

وموضوع المنازعة في هذا المحضر يعتبر انتعاشا للخلاف وقد سبق أن ثار وافتتن فيه الخصوم، ومن القبائل الثلاث، لأن الملكية موزعة بين متجاورين لقناة

السد وطاحونة يوبهير من قرية تاجلت وقرية ايڤريدميمن، وهما من قبيلتي بني بوشعايب تمثلهم الأسر ذات الشأن في ذلك العصر (الأسرة المنحدرة من المصامدة) وقبيلة بني يحي، وأسرها من تاقة ينوبهم ويتحدث باسمهم ذووا الشأن والسلطان حينئذ...

والقناة هي مجرى ذو منسوب مستوى متدرج الإنخفاض تروى بها الأراضي التي تقطعها، وتروي السد المدبر للطاحونة المائية المحاذية للوادي (بوبهير)...

ومع امتلاك أصحاب الطاحونة والقناة للوثائق ولحق استغلال المياه في تحريك الطاحونة، فقد ثارت القضية من جديد، والتأم المجلس مرة أخرى، وتداول القضية من جوانب النزاع والخصومة والويلات واعتمادا على الوثائق العدلية القديمة ورسوم الملكية، مدعمة بالشهود ذوو الأهلية وذووا السلطة في ذلك العصر ولدى قبائلهم.

وتوصل المجلس إلى دعوة المرابطين في تلك القبائل الثلاث والأعيان من الأمناء ورؤساء القبائل، للإنعقاد من أجل تأدية اليمين الشرعي موفق فقه خليل.. وكان اجتماع بني بوشعايب وبني يني وبني غبري... من التاريخ المعلوم وتحت رئاسة الخليفة على زاوية وضريح الولي سيدي علي بن الطالب بكوكو... مدعما بإخوته وأعمامه الذين لايعلم لهم وجود حاليا في كوكو. وبسبب الحروب والهجرة والفتن.

ونص الوثيقة مختصرا ومترجما مرة ثانية من الفرنسية إلى العربية، لأن النص العربي مفقود، ولكن المحضر موثق رسميا كما تقدم وهو كما يلي:

«وثيقة ملكية السد للسيد أبو زيد عبد الرحمن الغربي-زلال- (القاضي) وهو مجاور لمستغلي القناة من جهة الرافد ببني زلال -بني بوشعايب...

والمطالبون بحقهم هم سكان قرية تاجلت أو(تاثيت) كتبها تاخيت... أو بناي ومنهم:

عمر بن الشريف -عبد السلام بن عدّي، واخوته كل باسمه ينوبهم السيد:

عبد السلام ويتحدث باسمهم. وكذلك عمر بن شريف ينوب إخوته من أولاد بورنان وأولاد حبررش واولاد مخلوف من المالكين لقطعة الأرض محل النزال، الواقعة في منبعها...

وأصحاب الحق الموثق بواسطة أوراق الملكية الثبوتية هم من اسرة جرايد ميمة (ايغريدميمن) والنزاع هو حول القناة المغذية للسد والملكية..

تم رفع القضية أمام مجلس القضاء، تحت رئاسة عبد الرحمن (القاضي) الغربي -الزلالي- وكل القوم يملكون وثائق استظهروها أمام المجلس، وتحتم الحكم بتأدية اليمين على الوجه الشرعي. مبدأ طالب به الشيخ محمد السعيد نايت يدير اكثرهم أهلية وتمثيلا وتعظيما. وقبل القاضي ذلك، أي قبل يمينهم،

أعضاء المجلس:

محمد أوقاسي نايت مقبل- عمر نايت علي من نفس الأسرة- أحمد بن أزميع السعيد بن عبد المالك- نفس القرية (أولاد مقبل)

السعيد نايت عدّي وكل أولاد بورنان، وأصحاب الملكية حول السدّ.

رفعوا القضية ضد مستغلي الطاحونة، ذوي الحقوق المتوارثة، ماتسبب في إثارة الضغائن والعداوة بين الأطراف التي ستتحارب، وتتصاعد حدة العداوة والبغضاء حتى درجة سقوط الأرواح وسيلان الدماء،

وتدخلت رجالات سعاة في نسيج الخير كما سيأتي إن شاء الله:

المرابطون والقبائل الحاضرون:

من القبائل الثلاث: بنو بوشعايب. بنو يحيى. بنو غبري...

وحين طرحت القضية أمام المجلس بتّ فيها وفق فقه مختصر خليل (في باب النوازل والمصالحة) وطالب المرابطون المتخاصمون بالتزام مبدأ التصالح، وقبل الجميع بعد محاولة رفض أبداها الطرف المدعي، ولكن هداهم الله فيما بعد.

وتم تأدية اليمين في مقام الولي سيدي علي والطالب، كما في علمنا وعلم أعضاء مجلس القضاء وأمام هؤلاء الأعضاء:

أولاد عمر الصمودي:

حضر الولي المبجل سيدي السعيد بن عودة الزلالي وطالبه سيدي بلقاسم بن حمودة (المكناسي) الغبريني. وسيدي علي بن حماد الداودي، وعمه: سيدي بلقاسم بن محي الدين. وسيدي السعيد بن الحاج. وسيدي محمد (مُحي) وسيدي اسماعيل بن سحنون، وابن سيدي علي وابن عمه: سيدي بلقاسم. وسيدي عبد الله بن عيسى وعمر: سيدي محمد بن عبد الرحمن وإخوانه: سيدي علي وسيدي بلقاسم...

سيدي محمد بن موهوب الحاج لبيت الله الحرام. سيد أحمد نايت بلقاسم (أودمار) سيدي محمد بن بوزيد، سيدي بلقاسم نايت محمد أو سعيد، سيدي السعيد نايت علي أمزيان... كلهم أولاد عمر والصمودي.

بنو يحي: ...سيدي محمد امقران المنحدر من سيدي أحمد لوفق (أولوفقي)... من دار تاقة اليحياوية. المنحدرين من سيدي بويحي... المستخلف لسيدي علي والطالب (Supléant): سيدي الحسن نايت إبراهيم (الجد الرابع للأسرة)... ابن عمه: سيدي اسماعيل نايت ابراهيم وأعمامه: سيدي محمد الشريف وسيدي عبد النور (أبناء سيدي محمد نايت ابراهيم)...

سيدي عبد الرحمن نايت علي. سيدي بوسعي نايت علي. سيدي محمد نايت أحمد

سيدي سعيد بن شعلال، (شلال) عمه: سيدي الجودي بن شعلال، عمر بن علي.

سيدي سعيد محمد نايت عبد الله، سيدي الهادي (ممحي) سيد احمد أورابح وهو أستاذ.

سيدي اسماعيل بن سحنون وإخوته وتلامذته.

سيدي محمد نايت علي -لونيس- المنحدرين من السيد علي بن عيسى البطروني-أيت بطرون.

أبناء غبرين: الولي المبجل سيد أحمد افليس (محو) أبو عبد الله. سيد أحمد بن أحمد الجودي، المنحدرين من سيدي علي (بوتسڤرنيت). سيدي (محو). سيدي اليازدين بن غبرين.

القبائل الأعضاء في المجلس:

عمر أمزيان نايت الشيخ من دار تاقة. فرحات نايت سي علي من دار تكنستير اليحياوية قاسي بن رجبوش من تاڤنيتس (ثاڤنيت) وجماعة غفيرة لا يمكن ذكرهم بالرسم.

وهكذا صرح المعروف بشهادته العدلية (الثقة) المبجل:

السعيد بن عبد الرحمن الغربي الزلالي (الغرب)..! وتم هذا في العاشر من ذي القعدة 1212هـ الموافق لـ 25 جوان 1796م.

(نسخة المترجم بتيزي وزو. الترجمان أفو Avoux)

المحضر الثاني لتأدية اليمين الشرعي:

اشترط الطرفان المدعى والمدعي عليهم أن يقدم للقسم اثنين عاديين من عامة الناس، ومهما كان شأنهما ومقامهما، لتأدية اليمين في قبة ومقام سيدي علي بن الطالب (كوكو). فهما مقبولان ومعترف بقسمهما. وكانت الإجابة:

(هاهو محمد امزيان الذي اقسم في الدار الكبيرة (مكة) وقاسي رمضان من دار (تجلت)... وأديا اليمين في نفس اليوم والموضع وأمام مجلس المصالحة برئاسة الحسن نايت ابراهيم.. وكاتب المحضر هو شاهد حاضر...

الأطراف المتخاصمة: (1) الطرف المدعى عليه:

من دار جراير ميمة (ايڤريدميمن) وهم مشرفون في ذلك الوقت أكبرهم وأجلهم الشيخ عمر بن حبرن (حيون) صاحب السلطة والنفوذ على قبيلة بني بوشعايب كلها. في ذلك العصر. ومواطنوه وأبناء بلده:

عمر بن يدير الحاج لبيت الله الحرام. علي بن حكلول (اكلول). محمد بن علي بن عجراب. بلقاسم بن بلعيد. الشيخ عبد السلام نايت محمد أو بلقاسم وكلهم أعيان (Notables)من الأسرة ذات النفوذ في ذلك العصر (أسرة الشيخ عمر بن حيون)

2)أبناء دار ارمدا (اوحدا):

محمد بن حموش. سعيد بن المختار. علي بن صادق.

دار تجلت:

عمر نايت وعمر: محمد امزيان وامحمد شعلال وقاسي بن رمضان وقاسي عبد القادر...

توضيح: وأبناء ابراهيم فروعهم بكوكو وتكانة ويتورغ هم:

العمارنة من الجد عمر بن ابراهيم (تكانة)

ايت هاشم من سي علي هي الأسرة بكوكو اليوم وبجاية. من بلقاسم بن ابراهيم أيت أورزقي (تكانة)...

ملاحظة آخر صفحة في المحضر رقم 44:

مرابطوا الساحل في ذلك الوقت هم: أولاد سيدي عمر المصمودي وأعقابهم الساكنون في الساحل وأعمامنا ايخلونن وأيت حميدان وهم: الشيخ سيدي اسماعيل بن سحنون وابن سيدي علي بن سحنون.

سيدي عمر بن عبد الرحمن، سيدي عبد الله بن عيسى، سيدي محمد السعيد بن لكبير، سيدي عبد الرحمن ازدوالي (ادوالى)...

أيت حميدان هم: الشيخ سيدي محمد بن الموهوب. سيدي سعيد وإخوة سيدي الجودي بن بلقاسم بن حمدان.

أمّا ايخلونن منهم: سيدي الطاهر بن سيدي بلقاسم بن مخلوف وأبناء عمه: سيدي محمد وإخوته: سيدي المسعود وسيدي بلقاسم.

ملحوظة في المحضر:

في هذه السنة توفي سيدي عمر أو لفقى (السنة الثانية بعد زوال الأحقاد والضغائن أي 1798) من دار تاقة من عند أعمامنا وحلفائنا أيت حمدان وأعمامنا أولاد سيدي عمر بن مخلوف... وكلهم مصامدة والكاتب أيضا من ذرية عمر بن مخلوف كما صرح به في المحضر...

المصامدة: هم من الطبقة الثالثة في صنهاجة، من بطونهم برغواطة وغمارة، جبل درنا، مواطنهم بالمغرب الأقصى.

تحتل أمهم جبال درن أو السوس، تعددت فيها الممالك والعمالات بتعدد شعوبهم وقبائلهم، اختلط بهم ذووا حسان وعرب المعقل. لهم حروب مع لمتونة ملوك المغرب المرابطين.

اجتمعت كلمتهم على المهدي بن تومرت المعرف عندهم أسافوا وأمغار.. وقامت دولة الموّحدين على أسس الدعوة والدين للإصلاح وهي أكبر دولة بالمغرب والأندلس من الدعوة الأولى حتى الإنهيار والتفتت... ومصاعدة بني بوشعايب من النازحين من بجاية بعد سقوطها على يد الإسباني دي نافارو -ابن خلدون ج6. 206. 223. 224.

محضر آخر لقضاء كركر:

تمّ انتظام المجلس الإسلامي الشرعي في سنة 1796. بصفة اعتيادية المداولات والمحاكمات، واستصدارا للوثائق التي تعتبر ثروة تمدنا بمعلومات عن المستوى العدلي للبلاد والعباد وبنوع الأحكام وهيآت التحكيم والقضاء بزواوة الغربية، وألمع أدواتها وروادها هم بنوا ابراهيم، وآخرون تخلد أسماءهم شجرة نسب أحمد بن يوسف الزرخفاوي وهم:

القاضي محمد بن أحمد الموهوب بن المبارك اعشابو -قاضي زرخفاوة وبني غبرين- وسيدي محمد بن أحمد قاضي زواوة في عام 1062هـ. (41)

ومن الأسماء الشهود على الشّجرة أبو زكرياء يحي بن معمر، ونقل عنه المدرس محمد أمريان اعشابو ومحمد بن علي بن عمارة (يعدل) وأعراب بن عمارة، ومسعود بن يذبر، والفقيه المسعود بن القاضي ومحمد بن عمر البجاوي والفقيه محمد بن تفاوي الشريف والسعيد بن أحمد الشريف وأخوه عبد العزيز والشيوخ مسعود بن خالد وعمه سعيد بن خالد..

كما أنه من الأهمية بالتسطير على بقاء تصدر الزاوية (علي بن الطالب) وأسرة ابن ابراهيم مكانة القيادة الرّوحية والدينية بالزواوة، رغم زوال سلطان كوكو وبني غبرين والجمعة.

فقد تطلب الحكم الشرعي الصادر عن مقام (والطالب) والمجلس القضائي تدخل رجال الدين والمرابطين وأعيان وأمناء القبائل الثلاث للمصالحة.

كان هدف الإجتماع لهؤلاء هو عقد المصالحة بين المتخاصمين، مصالحة عرضية وشرعية أمام الشهود وأعيان القرى والمرابطين في مجلس منعقد في التاريخ السابق 1212هـ. وقد سجلت الوثيقة إلى جانب العدول والقضاة أسماء الحاضرين من المرابطين المصالحين، وفي مقدمتهم المضيفون من المبجل حسن بن ابراهيم وأبناء عمومته واخوته، محمد وعلي واسماعيل. بصفته شيخ الزاوية والقيم عن ضريح سيدي علي بن الطالب ورئيس المجلس...

وعن بني غبرين سجل حضور المرابط الشيخ احمد بن عبد النور المكناسي الغبريني(...) وعن بني بوشعايب أحمد الزلالي وآخرون وردت أسماؤهم وألقابهم في الوثيقة.

تعتبر هذه الوثيقة غاية في الدقة. وعدم ابتذالها لكل مامن شأنه إثراء التراث ومصداقية الشرع بزواوة وعرفها والقوانين التي تتحكم في ضبط الأمور العامة والخاصة (خصوما وقضية وشهودا وقضاة ومصالحين).

وإتماما للدقة التي يتطلبها المجال العدلي، لا يقتصر المجلس على تسجيل كل المعلومات التي تضفي مزيدا من الشرعية والمصداقية مثل ذكر جماعة كتلامذة سيدي علي بن الطالب وذكر أسرهم وقراهم وقبيلتهم وزاويتهم، والوثيقة مصادقة من طرف عدل مجلس قضاء تيزي وزو في العهد الفرنسي وهو صاحب ترجمة النصّ العربي المفقود، وعدد صفحاتها 24، خمسة منها خاصة بالقسم

الإداري العدلي بذكر التقاضي والعدول والشهود والقاضي وصيغة الحكم ومجلس المصالحة الذي يعتبر هيأة تنفيذ نصت على دورها الوثيقة، وهي بدورها ترأسها القاضي بن ابراهيم.

كما أشارت الوثيقة إلى مرافعات ومقاضاة سابقة في الموضوع، وكذا ملاحظات حول قراراتها المتخذة.

وهذه كلها تظهر الوثيقة أغنى ماتوصلت إليه دواليب الشرع الإسلامي آخر عشرية القرن 18. وهي تزكي شرعيتها بذكر أسماء لامعة، عظيمة الدور في مجتمع زواوة لأن مجال تأثيرها غير محدد ولامقتصر على القبائل الثلاث المذكورة.

-الخط واضح والقلم المستعمل ريشة والحبر أسود والحروف بارزة، ولم يبخل الكاتب العدلي بمساحة الورق، بحيث لم تتجاوز بعض الأسطر ثلاث إلى أربع كلمات فقط.

أمّا لغة الترجمة فهي بسيطة وظيفية جدا، يستعين الكاتب خلالها بمعطيات وتعابير عربية أو قبائلية، بعضها صعب التهجي والفك... ماهو ناتج عن صعوبة ترجمة الخطاب العدلي الإسلامي وإخضاعه لمصطلحات فرنسية.

فالوثيقة بكل هذه المقاييس النادرة خمينة بمدّ المؤرخ بالمادة الخام، كما أنها اثراء للجوانب العدلية، لاسيما في خصوص القضاء، بعيدا عن مقر الحكومة المركزية، وبعيدا عن ضغوط القاضي الحنفي الرسمي كما هو مشهود في العاصمة... وتتضمن الوثيقة جوابا من خلال 24 صفحة لايشعر الدارس بأي تأثير للعرف أو ضغوط على القضاة وعلى المجلس، أو أي شطط وغلو مهما كان نوعه.

فالمجلس الإسلامي سني والحكم يعتمد فقه خليل السائد في ربوع زواوة وزواياها. فالخصوم حضور مذكورون ومترجم لهم بالهويات والحرف والمركز

الإجتماعي. وكذلك الشهود، وجاء قرار المجلس صريحا. واشترط وأوصى بمجلس مصالحة، لايمس ولا يناقض قرار القضاة! بل إنه عون للهيأة الشرعية في نواحي التنفيذ، ولم تشر الوثيقة إلى وسائل التنفيذ الأخرى كأعوان الدولة والشرطة وغيرها.

وهي الدولة القانونية لزواوة في العشرية الأخيرة من القرن 18.. العشرية التي شهدت نوعا من التفكك للسلطة المركزية وتردّي الأوضاع الأمنية والإقتصادية والسياسية، حيث عمت الثورات كل الغرب ثم الشرق الجزائري، درقاوة وبلحرش..!

ولا شيء في كل هذا من خلال هذه الوثيقة، وكل ما هناك خلاف ونازلة مزمنة حول ملكية وحق الرحى (سد مطحنة بويهير) ولمعنى الصراع بعد الكسب، كمصدر الرزق والإثراء يدر على القبائل الثلاث عوائد من الدقيق، وسمعة عبر كامل زواوة بمفهوم الخدمة العامة وفق شروط الأمن والتنقل...

وخير مانختم به هذه الترجمة هي جدولة القضاة ورؤساء المجلس العلمي بكوكو منذ عهد وليها علي بن الطالب يخلفه السيد سعيد بن الطالب ثم أبو القاسم بن ابراهيم ثم محمد المزري بن ابراهيم ومحمد الحسن موقع العقد الشرعي الأخير... وهذه الشخصيات كلها تغطي الفترة الحديثة من عمر المملكة -1618- حتى 1796 لإشعاع الشريعة والقضاة...

وهي كلها معلومات ماكان بإمكاننا الحصول عليها لولا الوثائق المذكورة وجهود أمثال بني ابراهيم وهانوتو عند ترجمته وتصنيفه لعمل رائع حول قانون القبائل...

ولا غروّ دون التذكير بأن الأسرة المترجم لها عرفت هجرة دائمة، نتيجة عوامل المشيخة والقضاء، ونتيجة ظروف تهيئ عوامل الطرد بقرية كوكو -القلعة

المعلقة إلى كوكب الزهرة... وقد عرفت هجرة قديمة نحو بجاية، حيث عائلة ابن ابراهيم أو بو يحي- الفاضل الصادق البجاوي- ثم بني ورتلان حيث يوجد فرع من الأسرة، وآخرون منهم توزعوا عبر زواوة يتداولون المشيخة وقيادة جموع المؤمنين وبعضهم مقدمي الطريقة كما تقدم.

وأهم تواجد لفروع الأسرة معاتقة وإيصندالن ويتورغ والجزائر وتونس، وطبعا تاريخيا ثبت وجودها بأزفون بواسطة العلامة المهاجر من بجاية شأن كبار العلماء والفقهاء (أحمد ابن ابراهيم) بقرية هوبلي. من القرن 9هـ... وهو الذي يعتبره محمد الموهوب بن مبارك اعشابو القاضي في شجرة نسب نسخها هو شخصيا من بين (ذرية دار أزفون)... أي أحمد بن يوسف الزرخفاوي المنحدر من شجرة سيدي بوزيد الشريف (الجميل) بواسطة علي بن بوزيد، وهذا مجال آخر يتطلب الجهد والبحث والجدية في المقارنة إن شاء الله...

المراجع والإحالة

-الإحالة والهوامش:

1) مجموع وثائق إدارية ومحضر عدلي سنة 1796. 29.12.9.8
2) كتاب الأنساب...شجرة زرخضاوة... 41.11..2 نسخة 1049هـ
3) مجلة الدراسات التاريخية (السحنوني) (عدد 4 ص30) 4.3.1.
4) رين... مملكة الجزائر 2
5) عمود النسب.مخ. محمد بن عميرة 6
6) ابن عسكر، دوحة الناشر ص 18. 7
7) برايي (ش) أسطورة ملوك كوكو (ص 40. 43). 30.24.22.20.17.10
8) الزاوي (أحمد) ترجمة سيدي منصور 1028هـ. 11
9) ابن خلدون ج 6 ص(القاضي الغبريني) (315) 13. 25
10) عنوان الدراية (الغبريني) بن القاضي أحمد (ص 133)- 14
11) أبو راس الناصري- عجائب الأسفار (مترجم) (م إ رقم 23.24) 19.15
12) فيرو (شارل). م إ (32 ص 121) 15.
13) الورتلاني حين. الرحلة الورتلانية (ص 600+8. 13. 16) 35.16
14) ابن زكري م إ (32 ص 121) 15
15) محمد بن رقية (الجيلاني) المرآة الجلية (ص 195/220) رحلات بلحميسي (ص79). 4
16) هانتو. القانون العادات القبائلية ج 3 ص(388.380). 39.38.37.36.21
17) النكون (ع ك) منشور الهداية (ص 199) 23. 26
18) روبين (م إ ص 140) 32.31.27
19) أبو يعلى الزواوي تاريخ زواوة (ص 30) فما بعد.
20) دوفوكس. تشريفات (ص 32 م إ) 32.17.
21) سعد الله. تقديم ابن حمادوش (ص 163) وكذلك كاثورت. 33-43.

أبو سعيد بن علي شريف

أبو سعيد محمد بن علي الشريف الشلاطي الأيلولي، البحاثة الميقاتي والفلكي، أول المنادين العاملين بالرصد للظاهرات المناخية والفلكية منذ 1166هـ/1752 لكن صرخة الرجل لم يكتب لها أن تغادر مكامنها من المخطوط، بفعل الإهمال والنسيان، وبفعل الذاكرة المفقودة بعد 1830، وبفعل التحول الذي طرأ على توجه العائلة، في عهد ولديه، محمد السعيد ومحمد الشريف، 1820 ومساهمتنا هذه نرجو من ورائها اثراء جهود الشباب العلمي ومكتبات أنديتهم الفلكية، على غرار تظاهرة خميس مليانة الماضية، وهذا من شأنه أن ينير أمامهم دروب البحث لرصيد حضاري هام.

- يعتبر ابن علي الشريف الميقاتي مكتبة لوحده، وبجهوده وجهاده في هذا المجال، وفي عصر طغى فيه الصراع حول نواقض الوضوء، وحول حرمة القهوة والتدخين، تهميشا للتوجه الديني والعلمي وتحويلا له عن مسار المعركة الحقيقية المفروضة حضاريا على المسلمين منذ أواخر القرن 18... وفي هذا المخطوط آيات لأولى الألباب.

المخطوط: حصلنا منه على كراستين، من عند الأخ الباحث الحسن بن محمد السعيد اليجري، وهما نقلان مختلفان، لكنهما متكاملان فالأساسية منهما هي نسخة محمد بن الشباح بن الطيب (الكاتب لدى مفتي الجزائر) نقلها عن كراسة لعم جده محمد الهادي بن علي بن محمد بن عبد السلام دفين (تكوت) بالمغرب.

كتاب جدير بالإهتمام والتقدير، بما حواه من ثروة علمية نقية المأخذ والمنهل، ولما اشتمل عليه من عشرات الكتب والشروح والجداول والصور الفلكية

للمجرات والدراري والنجوم والمذنبات المرعبة من ناحية، ولما قدمه من تقريب لمعلومات (طلاسم) إلى أذهان قراء زواوة.. والحرف العربي بصفة عامة.

كما أنه من ناحية أخرى يمثل قاموسا لغويا علميا، فلكيا ميقاتيا جد معتبر في عصره، ولا نبالغ إذا قلنا أن الكتاب ثروة من حيث المصطلح وأننا في القرن العشرين، لم تسم بعد مادتنا اللغوية إلى مستواه وهو في آخر القرن الثامن عشر، لغير ذوي الإختصاص..!

معلومات تحدو بالدارس إلى النظرة العلمية لما عرفه بعلم الميقات والنجوم أو الفلك، كظاهرة طبيعية يؤدي فهمها إلى تقوية الإيمان بالله، كما يضل قوم من الأدعياء، أخوانهم في الدين بدفعهم عبر مسالك ودروب الخرافة والشعوذة وحساب (الجمل) وخط الرمل(...) والطالع، يستحوذون على جمهور العجزة والجهلة والقصر في زمانه 1778 وهو الشاهد على ذلك في هذا المخطوط ذي الـ201 صفحة من الحجم المتوسط وبخط دقيق.(1)

ابن علي الشريف وأسرته: يتناول تقديمنا هذا ترجمة شخصية لأبي سعيد محمد بن علي الشريف، ولمحة عن انتاجه ومااعتمده من مصادر محلية ومغاربية وفلاحية... الجهد الذي حظي باقبال شيوخ زواوة وطلبتها، من مختلف الزوايا والقرى والطبقات والمهن، ونأتي بتلخيص مقتضب للكتاب ولموضوعاته.

لا بد من الإشارة إلى أن أستاذنا الدكتور سعد الله، قد سبق إلى التعريف به في تاريخ الجزائر الثقافي، ونحن بهديه موجهون وعلى خطاه سائرون إن شاء الله.(2)

ابن علي الشريف الشلاطي: أسرة (الباشا آغا) الشهيرة جزائريا ومغربيا، المقيمة بشلاطة، ايلولة الشرقية، دائرة أقبو، وهي تنحدر من الجد موسى واعلي بن يونس الزلاجي، دفين أقبو.

حسب إجازة الشيخ الحداد لأحد الأحفاد، سجل شجرة نسبه كما يلي:

محمد بن عمار بن موسى بن عمار بن علي بن واعلي بن يشرح بن أحمد بن علي بن موسى بن علي بن سيدي يونس الزلاجي، والنسخة يملكها محمد بن عمار بن واعلي الشريف، وبخطه مؤرخة في 1311هـ/1893م.(3)

نشأ موسى الجد على المشيخة شأن أجداده حتى في تونس، وبعد تمدرس على والده، المشيشي الأصل في مصادر، والبوزيدي الشريف في مصادر أخرى، من القرن 8هـ/14م حسب مخطوط في حوزتنا، حصلنا عليه من أفاضل الأسرة، جازاهم الله خيرا، وحسب مراجع متنوعة، موثقة في الموضوع.(4)

مصادر تعيد يونس الجد الأول إلى النسب الإدريسي، نشأ ولده موسى في كنف والده، ثم استقل مدرسا علوم القرآن واللغة بالناحية في مغنين ثم أيت وجعود، وكان أول مقام لوالد موسى (علي) في قرية مروان التي عظم شأنها حتى غدت قبلة العلم والعلماء بالصومام قبل خرابها على أيدي (البدائيين) كما ذكر العمود (ص33).

ومن علي تفرعت أسرة موسى وبن عمرة، والأولى هي التي غدت آل ابن علي الشريف بعد نزوح مفروض إلى شلاطة، حيث تعاقده أسرة (التزفينين) على الأمامة، ومايزال مدفنه بهذه الربوع، ترك موسى واعلي ثلاثة أولادهم هم علي، مروان، عمر، ومن علي تفرع ابن علي الشريف بعد عصر الجد بثلاثة قرون تقريبا من 8 إلى 12هـ.

أي منذ استقرارهم بشلاطة، بعد مقام وهجرة مفروضة على الجد وأبنائه وأحفاده، كما أوضح العمود ..

بشلاطة أقام علي معلما واماما، وهو الذي أسس أول (معمرة) متواضعة في بادئ الأمر، ولكنها عرفت تطورا واشراقة في عهد أحفاده وابنائهم، كأبي سعيد

(صاحب الكتاب الفلكي) الذي يزودنا بمعلومات جد هامة حول الأسرة وحول المحيط الذي تطورت فيه المعمرة منذ القرن 18، حتى غزت شهرتها آفاق زواوة والحضنة، والبيبان والبابور.

اعتمادا على المخطوط فإن الزاوية تعود إلى ماقبل القرن 18م بعهد طويل، لأن المعهود أن ينتقل الشيخ للإقراء والإمامة ولإقامة الشعائر الدينية، ويتطلب الإستقرار والتعمير زمنا معتبرا، تتوفر خلاله الشروط المطلوبة، مثل إيجاد أرض أو مرفق، ومبنى إقامة أو توسيع.

وعادة يتعين توافر شروط وعوامل، في مقدمتها مؤازرة الناحية والدعم (الأمان) ومن هذا القبيل الشيء الكثير من معاناة أسرة ابن علي شريف منذ القرن 12هـ.(5)

وهكذا غدت شلاطة بهذه المعمرة قبلة طالبي العلم، وطالبي التقوى -غذاء الروح والجسد- وعلى مر الزمان، تكونت حواليها أحياء تعمر قرية شلاطة الحديثة، بفضل الزاوية، وليس العكس...

لقد ألف أحد تلامذة ومريدي ابن علي الشريف في عهد لاحق كتابا حول مناقب الولي وولديه، وهو أبو سعيد بن أبي القاسم بن الطيب بن الحسين (يعدلي).(6)

تيتم صاحب المخطوط (أبو سعيد) محمد مبكرا، وذاق من ألوان العذاب والحرمان ما عبر عنه -معتبرا- وليس متذمرا في مخطوطه، وما غرفه من العناء، بصم الرجل شابا وكهلا، وأثر على سلوكه وموقفه من الأحداث والأشخاص والعلماء والظروف التي واكبت كل تحولات الأسرة، منذ هجرة الجد الأول من زواوة من موطن (أحمد بن عبد الله ببوعيدل) حتى مقام فرع منها بشلاطة.(7)

وفي سنة 1778م لم يتخلص أبو سعيد محمد من الكثير من العنت والضغوط. ذات الأثر الملموس في كتابه، وهو يومها شيخ مقصود يسعى إليه، ويشرف على مجموعة طلاب علم. منهم من هو أكبر منه سنا.

نشأته ودراسته: المؤسسات التي نهل منها أبو سعيد قليلة، ولكن مدرسة الحياة والإتصالات والترحال هي المعين الذي أقره وارتضاه شيخا... ويبدو أن اليتيم قد عوضته العناية بالزوار المترددين على معمرتهم (المزار) من الجنسين، ومن كل الطبقات، وهو مايوفر للرجل معارف وعلوما منقولة تلقائيا، إليه... عوض أن يسعى هو شخصيا إليها، كما ألمح لذلك...(8)

كانت دراسته الأولى على يد والده (العالم) وربما جده، ثم انتسب لزاوية أبي داوود، فزاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي وربما أحمد ابن ادريس..

وحسب صاحب (المناقب) تتلمذ أحفاده عن الشيخ الحداد...(9)

وليس غريبا أن يظفر أبو سعيد بابنت شيخ له من ايلولة... ماحدث تماما لكل من علي بن موسى وبهلول ابن عاصم، حين تزوجا من ابنتي شيخهما يحي العبدلي (تموقرا) حسب الورتلاني، ومراسلة صديقه الشيخ عبد الرحمن الثعالبي...(10)

ومما ذكره عن دراسته، وشخصيته الأولى، مايغنينا عن البحث «كنت معروفا بجمود القريحة والجبلة، وموصوفا بالبله والغفلة، إذ ليس لي من العلوم تعلم، ولارحلة (...) إلا في مختصر خليل في مدة قليلة، من أجل عوارض نامية» ويقول:

«توفي والدي وبالعلم كارع وعامل فيه وناهل، وزاهد في دنياه بعلمه عامل، مالنا سوى الله كامل، أنا وبنيات له صغار (...) أمنا تحنو علينا.. ونحن في غموم كبار، وحالنا من الأقارب، إلا كذئاب وعقارب!.. ولا من الأباعد مواد ولا مساعد...» هذا محيط فترته وهو لا يتجاوز الإثني عشر سنة.

فلما شددت أزري وحالت حضرة عذاري، كفلت على باب المولى الكريم سائلا منه فتح الباب إلى صوب الصواب... حتى منّ سبحنه علي، فحضرت مدارسة المختصر، فيسر على فهمه، وانقشعت سحائب الأوهام، وانجاب زبر الغبارة... فرجعت بعد أمد، وأنا من أبناء جنسي منقبض غريب، مازلت اقتطف من العلم جمانا اختلسها..والأيام قد نشبت بأنيابها فينا والليالي والأزمان بأظافرها»..

أما الأسباب التي دعت للتأليف فيصرح بها:

كان ذلك بطلب من تلامذته وبعد وفاة أكابرهم(...) كما أشار، اقدم على تأليفه القيم، والذي يمكن أن يدرج كأولى محاولة لدراسة جد متطورة موثوقة، في علم الميقات والفلك لزواوة، اعتمادا على مصادر، لم يهمل منها وضيعا أو عظيم الشأن، من مختل في العلوم المتداولة عندئذ في الزوايا ولدى جمهور المؤمنين المصلين والفلاحين على السواء، نماذج ثقافة الشيوخ والمعلمين، رغم وضع الأزمة الذي لم يتخلص منه أبو سعيد، وهو شاك بذلك ولو لم يقل:

«دبرت ذلك وزبرته في عدة ألواح وأوراق متفرقات، انقيتها من أنواع للفنون، في أزمان وأوقات، فتأملت في جمع تلك الأنواع بعضها إلى بعض، في أوضاع لما خشيت عليها الأندراس والضياع، بعد تعب شديد في تحصيلها من تلك الرقاع، من سيرة الرسول وسير الخلفاء والعرفاء. من المواعيظ والأذكار وحكايات الصالحين الأبرار، ومنها في التعريف بالأخبار المالكية الاخيار... ومنها على محاسن وأخلاق النساء والرجال، ومنها في تفسير الغريب للمبتدئين والتقريب».

يقول: سألني جماعة من الطلبة الأحياء وضع جملة مختصرة، مع الإنفصاح عن المهمات في الأزمان، وادلة القبلة بالإيضاح، فلما تكرر سؤالهم سرا وجهارا، وأنا متوقف برهة عن ذلك متردد، حتى قضى كبيرهم نحبه (...) رقت نفسي لمن بقي منهم...(11)

شرعت في مطلبهم مع عدم مواتاة الحال، من مزاحمة الزائرين من الرجال والنساء، وشغب البال، من ترادف الأهوال، ومن فادح الجور الأباطيل (...)

الفلكي الجزائري في القرن 18

مع قلة علمي وقصر باعي وركود فهمي، وضيق ذراعي، لاسيما في وقتنا 1193هـ/1779م... الذي قل خيره وهاجت فيه محن متماحلة، وترادفت لحن متطاولة.

المؤمن فيه كالقابض على جمرة محماة، أو كماش على مزاحف الحياة فإنا لله وإنا إليه راجعون، على قلة العلم وأهله، حتى صار مثلي من أهل التأليف مع جهله ويقال:

«وإنما البغاث لا تستنسر، والأرانب لا تتنمر، ولكن من لم يكن العسل في أركانه، فليكن على طرف لسانه..»

لا ندري لماذا سكت أبو سعيد على مظاهر الحكم وعلاقته بالسلطة ولم يشر من قريب ولابعيد إلى وجود أية إمارة أو وجود تركي، واكتفى بالتلميح حين طمحنا إلى التصريح، مثل مافعل عند ذكره الزلزال المرعب والمدمر الذي ضرب زواوة، وضرب العمران وقذف بالأحجار من مرتفعات (تيزيبرت-شلاطة) أهم فجاج جرجرة الشرقية سنة (1758م/1172هـ.

إما تذمره من العصر والأوضاع وشكواه من الأقارب والأباعد على السواء، فهو سمة كل العلماء، فلقد تذمر معاصره (الورتلاني) وقبلهما بخمس مائة سنة أو بعدهما بمائة، فالعلماء والمشايخ دائمي التذمر والشكوى، مايعود لعوامل نفسية واجتماعية، أكثر منها سلطوية...(12)

فالمحيط العلمي قحط وجفاف، ولكن ثراء المصادر ووجود وسائل الإكتساب والتعلم متوفرة لكل من سعى وبحث معالمها ومواقعها، وليست مطلقا مكامن مخيفة..أو مخفية...

لكننا نكتفي برصيده الفلكي، وتقييمه لرفاقه بتعابيره حيث يصرح:

هذا زمان الكمون ولزوم البيوت والرضا بالقليل اليسير من القوت(...) وهو تصريح عن الأوضاع المتردية في كل المجالات.. أوضاع يتوجها قلة المساعدين وكثرة الحاسدين، يحملان الإنسان على الكتمان، وطلبه الخمول في كل مكان...

إن الناس كشوك في ثوب ترتديه، مارأينا ماسمعنا كزمان نحن فيه.

وعن تأليفه كما يراه يقول:

من عثر فيه على خطأ فليسمح، وعلى العثار فليصفح، وسميته (معالم الإستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار) وهو شرح لقصيدة (اليواقيت لطالب معرفة المواقيت) للشيخ الفقيه الميقاتي علي بن محمد بن أبي القاسم بن ابراهيم بن محمد الدادسي المتوفي عام 1075هـ(1664م).

مصادر ابن علي شريف: اعتمد أبو سعيد مراجع كثيرة نقتصر على ذكر الأهم من جملة 60 مرجعا، مغربيا، مشرقيا، زواويا...

وقد اعتمد على مطالعته الشخصية من المؤلفات الرئيسية والشروح المختلفة، ونثر المنظومات التي ييسرها للقارئ المبتدئ والشيخ، والتي يتولى فك منغلقها كما قال، واعتمد على جداول الرصد ولوحات ميقاتية وعزز جهده بعشرات الرسوم والصور، بعضها مرعب... ونظرا لإستحالة ذكر كل المصادر نكتفي بالآتي منها والأهم.

- كتاب الفنون وعلم النجوم للفلكي اليوسي.

- شرح ارجوزة الاسطر لاب للسوسي، مقدمة الممتع في شرح المقنع لنظم أبي مقرع محمد السعيد الميرغني الدداسي المتوفي 1090هـ/1679

اليواقيت ومعونة الطلاب لأبي علي بن محمد الدادسي

-تنبيه الانام للجادري

- السيوطي على حاشية البخاري وفتاويه.

- اشراف البدر على أهل بدر للسوسي المتقدم.

ومن عائلة الونشريسي اعتمد أكثر من واحد من أحمد الوانشريسي وسحنون وعبد الواحد وعبد العزيز، وعلى كتب أمثال:

- مفيد المحتاج في شرح السراج وشرح القرطبية للشيخ أحمد زروق البرنسي، والأول للونشريسي (سحنون)

- رسالة في معرفة حروف (الجمل) لأبي الحسن بن سهل الأندلسي

- قاعدة مدخل يناير لأبي العباس سيد أحمد بن مزيان الزواوي

- جدول الكبس والإزدلاف للشيخ أحمد بن بلقاسم، كامل القرن 18

- رسالة على الأوقات والتواريخ لمحمد بن عبد الرحمن الحطاب

- ترحيل المنازل ومؤلفات أبي زيد الراضي أبي عمر العالم السوسي بالغيار.

- معرفة الأوقات بحساب من غير آلات ولاكتاب.

- معرفة العشاء والصبح وأجزاء الليل تقريبا، لأبي زيد التاجوري.

- المستطرف في العلم المستظرف للمسعودي...

يذكر أبو سعيد مرارا أنه عثر بخط والده على تلخيص حول (التنين) وعلى قصيدة في مدخل السنة العجمية وعلى نظم الفقه لمحمد بن علي بن مالك الزواوي (تيفريت) ومحفوظات أو جداول أخرى لوالده المتوفي 1772م مثل جدول الازدلاف لكامل القرن 18 ومداخل الشهور والسنوات الهجرية، وكذا الكوابيس من السنين ووالده هو محمد واعلي صاحب المناقب...

موضوع الكتاب: موضوع الإستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار.

شرح لكتاب السوسي، وهو محاولة شمولية يعرفه بما يحتاجه المبتدئ كفيل نافع... ينفتح به منغلق السوسي، ويتضح ماأهمله... به ضروب من المنافع جمة، من معرفة أوقات الصلاة والإذكار، وتحديد القبلة من جميع الأقطار، والتفكير في عجائب العلويات، وغرائب السفليات، ومعرفة العام العربي وشهوره وبيان مهماته وأيامه وكبسه، ومدخل السنة العجمية، وكبسها بضابط قريب، وتفصيل شهورها لفائدة الفلاحة والأمطار.

ويقول عنه: ذكرت ماكان في كل شهر وفي كل يوم، وذكرت المطالع والمغارب بالقول الشافي، ومجاري الشمس، ومايعتريها من الشروق والسقوط والذبال،

ودخول الحر والقر ومابينهما من الإعتدال، وكذلك سائر الدراري وترحيلها في البروج والمنازل وأشير إلى الرياح والبرور والرعد واذكر انقلاب الشمس في وقتنا هذا مع الإستواء ومذاهب العرب في الانواء والأمطار.

إنه شرح وتفصيل لما أهمله السوسي، وتقييم وتكميل لما استغنى عنه وأغفله.

هذا تقديم أبي سعيد لكتابه، وهو كما يبدو شرحا إلا أن 200 صفحة من المخطوط كانت أوسع من ذلك واشمل، فقد اعتمد أسلوب النقد والفرز والترجيح والرفض للرأي الذي يحتاج إلى تصويب أو تجريح مؤكدا باراء العلماء الآخرين.

الأسلوب وترتيب المخطوط: لم يضع ابو سعيد خطة وفق المنهجية الحديثة، ولكننا نتلمس بكل يسر انتقاله من موضوع إلى آخر، وكان يشير إلى باب كذا أو كيت... وهذا مايسهل مهمة تتبع الأبواب التي تدخل في بناء الخطة كما يلي:

- المقدمة

- تاريخ علم التنجيم، موقفه ورأيه في الاسفاف الذي تعرض له علم الفلك، وانحاز إلى قول علي بن أبي طالب:

علوم الأرض لم تصلوا إليها فكيف لكم بعلوم السماء...؟

- فائدة العلم وعنده هي: معرفة مهمات الدين (مواقيت) وخدمة الفلاحة، من حرث وغراسة وتربية الحيوانات، ومن معارف عامة ذات الإنتشار الواسع في زواوة، حيث حازها الفلاح العادي الذي لايمكنه جهل مداخل ومخارج المواسم الفلاحية، مفيدة أو ضارة مثل (السمايم) و(الحيان) شتاء.

وأهم تناول للمعلومات ماتحلى به أسلوب ابن علي شريف من لغة مرنة مطواعة سليمة، ومن مصطلحات وتعاريف جد علمية... فالمواقيت عنده (اقتران حادث بحادث).

وفي عصره تغدو المصطلحات معارف سابقة لثقافة العصر بمائة سنة (1778م) عندما يدلي بمعلومات ميقاتية وفلكية بلغة ذات تعاريف جد دقيقة، كما عرف النطح بأنه سقوط نجم من المغرب يرادفه صعود نظيره في المشرق... إنه يتعامل مع النجوم والمجرات والكواكب والأفلاك... فالنطح والدبران والهقعة والهنعة والذراع والاخبية والصرفة والقرع والعواء وبطن حوت والشواء...الخ.

أما البروج فهي عنده الكبش، الثور، الجوزاء، الأسد، السرطان، العذراء، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت.. وذكر أن منازلها (20+8) توزع على هذه البروج.

وذكر أنه بالكواكب المشهورة تعرف أوقات الليل والسحور، وكل ساعة، ويمكن رصد منزلة الشمس في الليل، أورد قول السوسي من أن 14 منها معروفة و14 مجهولة. وتوسع في معلومات النجوم وصعودها ودعى إلى رصدها وامتحان ظواهرها بدوام تواصل جاد. ولم يرفض ماورد من أن بعض الأنجم تعمي عيون الجمال إذا وقعت عليها... وإن البعض الآخر تذير شؤم وخراب وكوارث وأوبئة وحروب!

توسع كثيرا في باب النجوم وتوزيعها على جهات الفلك المكوكب، وذكر أن الرصد أثبت اختفاء بعضها ومغيبها 40 أو 50 ليلة، وإن لها علاقة بالطقس كنوء الثريا... واردف ذلك بالرسوم.

أما رأيه حول مايعرف بالتنجيم لكشف الطالع... كحادثة فتح عمرية والمعتصم، وعميق إيمان المأمون بهذا العلم.

فهو رأي صريح، وإن ليس للإنسان إلا ماسعى... ثم تعرض للرياح وأنواعها وجهاتها، وليس الجهات المنبعثة منها، وذكر علاقتها بالمناخ مطرا أو جفافا، وحاول تنويع السحب من سهيل والربابة... وذكر بالمثال الفلاحي العامي: إذا احمرت بالعشي تأهب للمشي... وإذا احمرت عند الصبح أجلس واسترح..

باب السنة العجمية والهجرية(1):

مدخلها وعدد أيامها وتاريخ ميقاتها واقسامها الأربعة (فصول) وعد أيام كل فصل. وموقع الفصل الفلكي، وعد البروج والمنازل لكل فصل، وانتقل مباشرة إلى السنة الهجرية (الحساب العربي) مدخلها وعدد أيامها وكبسها، وأطنب في اللمحة التاريخية للظاهرة، وتتبع كل شهور بعدد أيامها، وخلص إلى أن هذا الميقات غير مضبوط، ولكنه أشار إلى استحالة تتابع أربعة شهور معا متواصلة، عند الميقاتيين، وإن الأمر لاينضبط إلا بالرصد مع هذا الحساب والتاريخ والرصد عنده (امتحان دائم وتجربة وذاكرة وتسجيل)...

يمزج أبو سعيد دراسته هنا بملح من نوع (التنجيم) ويردد ماذكره آخرون، كأبيه من أن الأيام الراعدة لأول الشهر ايذان بكثرة الخيرات وهلاك الخيل والحمير ويصلح الزيتون والشعير، وإن حدثت زلزلة اشتد الحال على الناس... هكذا يستمر في تقديم كل الشهور بمثل هذه التوقعات والتزليم والحسابات، وبالفوائد المأمولة والمضار المتوقعة للفلاحة وللإنسان والحيوان والنبات.

أهم خصال أبي سعيد هي الثقافة الدينية ومسحة الإيمان والإستشهاد بأحاديث وتراث السلف الصالح (السنة) بهذا الشأن، وهو مجال دفع به إلى عرض سيرة الرسول وانسابه والخلفاء الراشدين والعرفاء والصلحاء كما قال. «كل المعلومات التي أدرجها معاصرة حول عدد الأيام أو الساعات التي أضاف إلى طرق حاملها عدد الأنفاس في اللحظات، وعرف حادثة الكبس والشهر القمري عنده هو اجتماع الشمس بالقمر إلى اجتماعه الثاني، واصطلح لذلك الميقاتيون قاعدة (يحي متهجد بليل) فالحروف المنقوطة 30 يوما والصماء 29 يوما، لكنها تحسم بالرؤية فقط».

أسهب كثيرا في محاولة ضبط مداخل الشهور بحساب دقيق حاول تبسيطه، ولكن بحروف (جمالية) وقام بتصحيح بعض الأخطاء لها عند الميقاتيين، ولم ينس الشهر القاصر (كفبراير)..

تكمن أهمية جهود ابن علي الشريف في إزاحة الحجاب على العلم نفسه، فهو عنده ليس الفلك (الاسترولوجيا) وإنما هو التنجيم أو علم الميقات (الاسترونومي) وقد قدم جهدا مبرورا نفض به الغبار على الكثير من الميقاتيين عبر الأعصر السابقة لعهده ولاسيما سنوات 1059هـ 1166هـ 1192هـ 1193هـ(ص 35.35)

وكعادة مؤلفي عصره يكثر من الإستطرادات ولا يلتزم بالموضوع، فقد ينساق مع الأعراب أو الصرف أو الصور البيانية، وقد يرجز أو ينظم، كما لا يترك شاردة ولا عارضة من المعارف الأخرى كعلم القراءات والافتاء ومعارف الإذكار والأوراد، وينساق راضيا خلف جاذبية الخرافة والميتافيزيقا، كما يحدث له أن يغرق في معلومات تاريخية، وشفّيعه فقط المصدر الذي يصرح به.. كما نقل عن المعيار أن ليلة المولد الشريف أفضل من ليلة القدر (...) بنيف وعشرين وجها..!

مع أن ليلة القدر نص عليها صريح الآية (خير من ألف شهر) كما ذكر أن الفاصل بين ميلاد الرسول وآدم عليهما السلام هو (4473سنة) وهذا غير صحيح تاريخيا لكنه مبرر بالمصادر المتداولة في 1778م وفي لمحة يوم عاشوراء وفضلها قياما وصياما وجزرا، حاول حصر كل الوقائع والمعجزات وكرامات الأنبياء المقترنة بدعواتهم عبر التاريخ، مما وقع لإبراهيم الخليل وعيسى وموسى وأيوب ويونس وادريس وذي الكفل والحسن بن علي بن أبي طالب، كلها وقعت في يوم عاشوراء.

باب السنة العجمية(2):تقدم رموزها بالحروف (أبجد، هوز، حطي، كلمن، صعفض، قرست، ثخذ، ظغش) وحاول الإتيان بكل معانيها كما وردت في كتب السلف، ومنها أنها أسماء لملوك مدين أو أسماء للشياطين، انتقل لضبط عدد الأيام للسنة الميلادية، مع كل عمليات التصحيح التي مورست عليها وهي 360 ثم 365 يوما وربع اليوم (360 جزء)، ولم ينس أن يذكر بأن ميلاد ميقات السنة (بذي القرن) وأن كبسها كان في يناير ثم في فبراير بعد النصرانية (ص 59).

تعرض أبو سعيد محمد لمعلومات فلكية جغرافية مدعمة بضبطها بدوائر العرض والطول (المتوهمة) وذكر الأقاليم الكبرى مثل الإستواء والمدار والقطبين، اعتمادا على كتاب (ابن هذيل) في رسالة الأسطرلاب، ونص على اختلاف الفصول وفلكية القطبين والأبراج والفلك الأعظم ودرجة الميلان وغيرها،،، مع مناقشة ظاهرة الإقبال والأدبار الفلكية، حسب المعلومات المتوفرة في عهده. وتحدث عن الإزدلاف والحساب العجمي والفارسي، وأطال كثيرا حول زاوية الميل ودرجته.

الشهور الشمسية مهد بإسهاب لمدخل كل شهر من يناير والإسم السرياني والقبطي، وأكد أن طريقة أبي العباس محمد بن مزيان الزواوي (المدوري) رفضها تلميذه أحمد بن بلقاسم البوجليلي الذي أعطى مثالا سنة 1166هـ 1752م قال:

«في عامنا هذا يؤخذ الزائد على العامين بدون عامنا (63) ويطرح (62) يبقى (واحدا) ويؤخذ ربع السنة الصحيح (12) ثم يطرح أسبوعا أسبوعا. حتى نقف على (السبت) مدخل يناير في السبعة الباقية، ولهذا الشيخ جدول هام لميقات الكبس والإزدلاف في القرن 18، وعرف الإزدلاف باقتران الإجتماع، ومنه المزدلفة، وتعرض لحساب (الاس)ورده إلى (الأصل من العدد) وحاول

إجراء الكسور اقتداء بالداداسي وأبي مقرع والوانشريسي، واصطلح طرق التعرف على مداخل الشهور، وأكد على (هذا اهم) في سنة 1766م لاسيما مراقبة الشمس وبرجها، والمواضع الطبيعية عنده من حساب نقطتي الإعتدالين المتوهمة في الفلك الأقصى الغير مكوكب، وهو التاسع، وبه تتعلق أحكام المراقبة ويصح الرصد (كما أكد) وإليه تضاف المطالع والميول والإرتفاعات والسموت،، وأعاد نظرية التأثير الفلكي ذات مفاهيم التنجيم أو مايعرف (بخط الرمل) إلى (المواضيع الذاتية المرتبطة بالفلك المكوكب)، وهو في رأس الحمل من نقط البرج(8).

قسم المنازل على البروج والفصول، فكل فصل محدد المنازل والبروج من الحمل والسرطان والهنعة وغيرها. وانتقد بعض رؤى تعود إلى عصر الدادسي والسوسي (11هـ/1059م) ورتب في دقّة المنازل كلها (ص 74) وخلص إلى باب أوقات الصلاة وأكد:

هذا هو المقصود الأعظم بهذا الفن، مع التفكير في أحوال الفلك ونبه إلى أن بعض الحسابات لاتسري على منطقة زواوة، وإنما على غرب منطقة خط 32 طولا.

ثم قدم القاعدة العامة لقياس ظل القامة عند الزوال وشروطها بهدف تحديد الظهر أوالعصر، ورأى أن الأطوال الإعتبارية 6 أقدام أو 7 أقدام أو 6.5 أو6 على 5/2 القدم) والقدم عنده 12 إصبعا، ثم تعرض لأنواع الساعة في عصره، وعرف بجدول الوانشريس السنوي بعدد الأقدام والأشبار وميقات السنة كل شهرين بحروف (جمالية) وذكر طرق تحديد الوقت ليلا بقياس ماعرفه بالثلث والنصف الشرعي والميقاتي، بناء على آخر منازل الشمس وبالعد العكسي باختلاف الفصول.

يعتمد أبو العباس محمد دائما مصادره، ويصرح بكل اشهاد يدلي به.. وتطرق للكواكب السيارة، وعد المرصود منها حتى زمانه 122 كوكبا،، والسيارة الشهيرة كما ذكر 7 فقط والثامن بطن حوت (الثوابت)، ناقش ائتلاف الفلكيين حول حركة لهما اطلاقا، وأشار إلى أقوال بالحركة كل 74 سنة وشهرا وسبعة وعشرين يوما (درجة فقط)وانتصر لهذه الرؤية (ص9) وعرف الكواكب أنها (أبخرة متباعدة من فلك النار -المرئية-) وهذه نظرية السديم، واستدل بقوله تعالى «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح..».

اهتم بالنواحي الفلكية والإجرام وذكر أن السبعة أعظم من الشمس والشمس أعظم من الأرض بأضعافها، وأصغر الكواكب الثابتة أعظم من الأرض، ترى في السماء (نقطة) والأفلاك عنده تسعة وشبهها (بطبقات البصل الغير متلاصقة)... وذكر أن (زحل) قدر الأرض 280 مرة. والمشتري 244 مرة، و(المريخ)200 مرة، والزهرة 120 مرة وعطارد 80 مرة، ثم ضاع في متاهات وصف الكرسي والعرش (الملكوت) (ص 99)...

الخليقة قبل آدم هنا ينتحي ابن علي الشريف منحى العجائب الفعلية في غير القليل من انحرافية مدهشة، وهو الذي ألفناه غير ذلك.

تعرض إلى الخليقة قبل آدم بلا رؤوس (قبل 28 أمة) وذكر مدائن بابل والإسكندر وذي القرنين، كما ذكر نهرا باليمن يغير مجراه مع الشمس صاعدا ونازلاً.. ونقل عن والده كلاما عن (التنين العجيب) ذي السبع عقد، لايرى في السماء ورأسه على الملأ جميعا، وهو لجس يسمى (الجوز هر العقدة) يقطع السماء في 18 عاما ذو ذنب مرعب (ص107) وقدم صورته.

وهنا ينزلق أيضا مع نبوءات النجوم وما يعرف بالطالع، ولكنه ينكر هذا الإتجاه رغم انسيابه معه.. ويحملهم مسؤولية تحريف العلم عن مواقعه الصحيحة إلى انحرافية، أي من العلوم إلى المواضيع الذاتية (عنده)...

أبو سعيد المتمرد: يبدو أبو سعيد هنا مجددا ثائرا على المفاهيم السائدة، في سنة 1778/1193 وقال (يزعمون برأيهم الفاسد) وكفر المنجمين وانتقل إلى الشهور الأخرى وقال:

«هذا وإن ذكرها وعدنا من بسط الشهور العجمية أياما ومايكون فيها، وصفة المنازل بالمثال، ليكون المطالع على بصيرة بمواقيت العبادة واستقبال القبلة من كل قطر». قال:

«اعتمد في ذلك على ماعلمني ربي بفضله العظيم ويسر علي من مطالعة كتب الأئمة الإعلام المصابيح...»

تتخلل عرضه هنا مسحة (التنجيم) عن غير قصد حيث يقول:«إذا دخل العام في يوم (الأحد) كان صحوا قليل الماء في الشتاء كثيره في الربيع، ويخاف في الصيف النقم وفي الخريف ريح الدبور والإعصار، ويقل العنب وان بالإثنين،، وهكذا حتى يأتي بمدخل العام مع كل أيام الأسبوع،، كما لو أن اليوم عنده ظاهرة طبيعية،،.ولكننا نحس بأن الرجل لايثق فيما نقله، ولكنه من تراث الوالد العالم -إن خير ما قدمه المؤلف هو الحساب الفلاحي، الواسع الإنتشار والبالغ الإهتمام والتأثير عبر القبائل. وما تخلله من معلومات جد قيمة حول الوقاية والتغذية وفوائد الزراعة والغراسة ومنها: 21 يناير خروج الليالي السود، وفي زواوة (الليالي)..

26 منه الثاني من أيام الحسوم،، أما 15 منه فيجري الماء في العود منه وتمتلئ العناصر والآبار.

وعن فيفري وبرجه الدلو ان السادس منه فيه بداية الريح اللواقح، التاسع منه يصادف ثالث أيام (الرجس) بدخول برج الحوت، 11 منه يطلع سعد السعود، تذهب الرياح اللواقح يوم 12. 15 منه مدخل الربيع الفلاحي ولاحظ عند

العلماء لا يدخل إلا في 10 مارس، أول الإعتدال الربيعي في زماننا أواسط القرن (11هـ 1049) وذكر أن مدخل ربيع 1172هـ هو يوم 8 مارس،، والخامس والعشرون منه أول العجائز (تسمى ليالي حيان) وهي ليالي الراعي -ليالي العجوز- الليالي السوداء الأيام الحسوم والصنابر ذات البرد والريح الشديد (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما)،،، ص134 ويذكر أن العجوز من أهل عاد. والسابع والعشرين منه رابع أيام الرجس، آخر الشهر 28 فبراير موسم ملائم للزرع واللقاح والزبر (هيجان القطط)،، وهو شهر الكبس كما تقدم،،، مارس 2 و5 منه أيام الرجس (مطر الثالث لا خير فيه)،، والرابع منه آخر أيام الراعي والعجوز،، اليوم الثامن اعتدال حتى منتصف 11. 23 جليده وبال على النبات، 24 آخر مطر الشتاء أو الصيف.

أفريل: أول يوم فيه (النيروز) 26 منه مطر النسيان المحبب للفلاحة والصحة.

ماي: رعد أوله نذير قتال بين الناس، وزلازل، به يطول الليل ويقصر النهار (ص160).

جوان أو يونيه: برجه الجوزاء 4 يوم فيه تنشرح القلوب وتنشط العلاقات 9 منه هو 11 من أيام الرجس نهاره 15 ساعة وليله 9 ساعات. وقائع الشهر كثيرة خيرها وشرها، لاسيما في المغرب،،

يوليه (جويلية) برجه السرطان، ذكر أن فقيه لا يقرأ في 80 يوما من السنة هي 40 من (السمائم) و40 من الحيان 14 منه أيام الرجس و22 منه رياح العجاج.

أوت: برجه الأسد، 15 منه يبرد الليل (طاب الماء والتذ الشراب) وذهب عنك حزيران وآب، 16 منه يدخل الخريف 20 تنقص سموم الصيف، يبدأ

الخريف 21 منه يغيب الشفق بعد مضي ساعة من الغروب و3 أخماس.. 29 منه آخر أيام النيسان ومنه 26 شهر فلاحي صائب التاسع والعشرون منه يكون نيروز مصر، توقد فيه النار (الأصل الفارسي). شوتنبر (سبتمبر) يظهر المذنب المرعب كل سبعين سنة (هالي) ذنبه بالمغرب ورأسه بالقطب. يومه 9 اعتدال وبرجه العذراء 27 منه وقع زلزال في عصر المؤلف الشاهد (1181هـ 1767م) تهدمت بيوت وهبطت صخور من جبال تيزيبرت شلاطة، وذكر أن الفلاح يجتهد لإنهاء أعباء الزراعة قبل 8 أكتوبر.

أكتوبر: برجه الميزان، أول يومه 11 الساعة و 3/1. اليوم فيه ريح الصبا حتى 20 منه، يقطع الخشب لعدم جريان الماء في العود. قدم آخر أبواب الكتاب من استقبال القبلة، ما يبيح له علم التنجيم.

التنجيم والقبلة: التنجيم وهو لا يثق في كل توجيهه لقبلات المغرب ومصر الجنوبية، ومساجد النوبة تستقبل السودان..!

حدد القبلة كل من سحنون الوانشريسي والسوسي من خلال برج التوأمين، الجوزاء والأنجم الثلاثة (عصى موسى). ذكر أن قبلة جامع فاس حققها أكثر من 100 فقيه ميقاتي فلكي.

لاحظ على وجه الخصوص أن القبلة معضلة أهل مصر والمغرب وأن مساجد القيروان والأندلس وفاس بها انحراف،، وأطنب في المعلومات عن القبلة للمقيمين حول الكعبة كالمدينة واليمن وغيرها،،، وبهذه النهاية الحميدة أنهى كتابه (معالم الإستبصار).

-انتهى بحمد الله-

أحمد الساحي

الإحالة والهوامش

1) بن علي الشريف (م) الإستبصار بتفصيل الأزمان وتاريخ البوادي والأمصار (مخ).76.

2) سعد الله (أبو) تاريخ الجزائر الثقافي ج 2ص

3) محمد بن عميرة، شجرة النسب ص28-30 / -الحفناوي- تعريف الخلف ج2. 544

4) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2 ص 544 / بوعزيزي مذكرات سي عزيز ص 143 الشباح.. مناقب بن علي الشريف (مخ) ص 4

5) ابن علي الشريف، الإستبصار ص18./ بن عمرة محمد العمود مخ ص 31.8.7.

6) الشباح مناقب بن علي الشريف ص2.

7) بن عمرة. محمد عمود النسب مخ ص 28.

8) ن م- عمود النسب ص 73

9) ترجمة أسرية لبن عمرة محمد وإجازة الشيخ الحداد وثيقة عائلية

10) الورتلاني الرحلة ص 48-10.9

11) الإستبصار، ابن علي الشريف، الإستبصار ص 8.11.17.

12) الورتلاني الرحلة ص 655.

فهرس الصور والمخطوطات

والوثائق

1)صورة الغلاف: تذكرة ابو القاسم لابن ابراهيم...

2) خريطة إعلام الزواوة: موضوع أحمد ادريس

3) صورة جماعة المسلمين: موضوع عبد الرحمن الأيلولي

4) ترجمة داوي أحمد: موضوع منصور المنيعي الجناوي وسلطان زواوة.

5) تذكرة محمد باي (الذّباح) لأبي القاسم بن ابراهيم

6) مخطوط: شجرة نسب (يونس الزلاجي) جد بن علي الشريف

7) ظهر الغلاف بيوغرافية المؤلف وصورته.

فهرس المواضيع

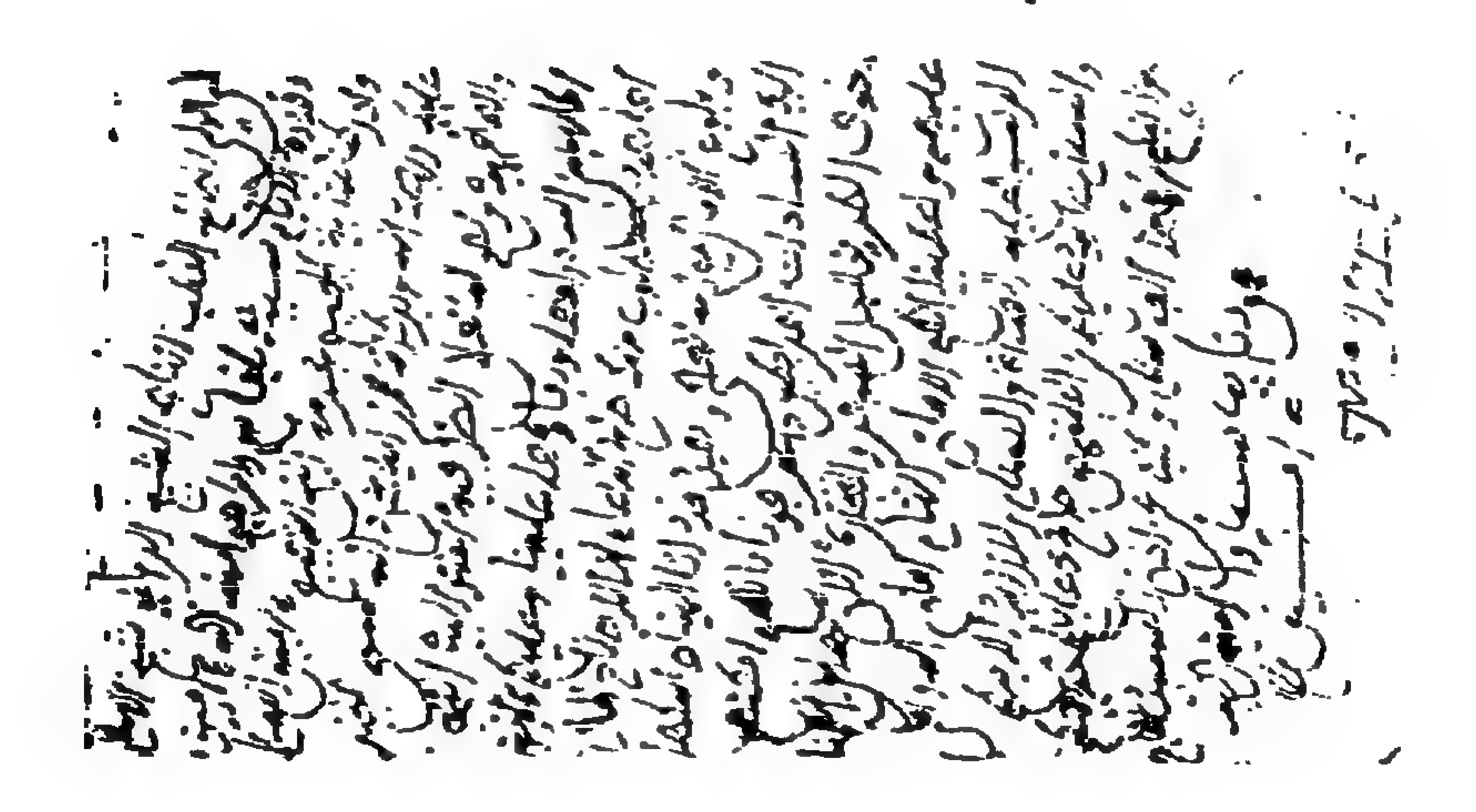
المقدمة:

*- أحمد بن إدريس بين بجاية وأيلولة.

أعلام من زواوة

السادة

- أحمد بن إدريس
- منصور الجنادي
- عبد الرحمن الأيلولي
- أبو القاسم بن ابراهيم
- ابن علي الشريف



... والتوحيد ... بالله ... [illegible]

[illegible] ... تحقيق الحمد ... عن الصدق و [illegible]

الذل ... يتحلى بعروة ... العارفون ... حكم ... و [illegible]

... حضرة ... إدراك النبوية ... [illegible]

... توجب الامتثال كما قال ... [illegible]

... والهذيان ... قيل وقال ... [illegible]

الناس ... لا ... عن ... إصلاح حال ... الكسر ... معنى [illegible]

والحقيقة مكاشفات المجاهدة توجب ... [illegible]

هي الأخلاق والطريقة تتبع الأخلاق المحمدية والحقيقة

هي الشرب من الكؤوس الأوحدية من لم يحكم الطريقة لم يشرب

من كؤوس الحقيقة ولا يشرب الكؤوس الأ... [illegible]

بنفسه ... من ضاع عمره ... [illegible]

الشرع ... العلم والكمال في الحكم ولا ... [illegible]

من خالف ... الشهوات وذكر ... جميع الحالات [illegible]

... البداية لم تشرق له نهاية من لم يخالف ... [illegible]

لم يتحقق بصفات ... [illegible]

للشيطان ... [illegible] العبادة ... [illegible]

بالسعادة وفي هذا ... كفاية والله ... [illegible]

... وسلام على عباده الذين اصطفى والحمد لله رب العالمين

الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

... الحمد لله رب العالمين ... [illegible]

انتهى ... الله وحسن عونه وتوفيقه ... [illegible]

... [illegible] ... لنفسه ...

... محمد ... بن موسى بن ... بن علي بن ... [illegible]

بن علي بن موسى بن ... بن ... بن ... الدين بن ... [illegible]

بن أحمد بن علي بن محمد ... زيد بن علي بن ... [illegible]

بن موسى بن عيسى بن ... بن سليمان بن ... بن محمد بن موسى

بن عيسى بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن

المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ... [illegible]

وإنما ذكرتهم تبركا بأسمائهم والأبناء ... الشرف ... [illegible]

... [illegible] ... وسلم

... [illegible] ...

الورقة الأخيرة من رسالة الصوابية بخط الشيخ ننشرها

بذكر ... نسبه الشريف وقد رفعه إلى الجد الأعلى ... [illegible]

طباعة الثورة الإفريقية
كشارع الامير عبد القادر الجزائر

بيوغرافية المؤلف

أحمد ساحي من مواليد 1941 بقرية أقوسيم، عرش أيلولة بزواوة العليا. درس بمدرسة القرية، من أولى مؤسسات جمعية العلماد.

- في 1957 استجاب لأمر العقيد عميروش مع مجموعة 45 (طلبة عميروش) الذين التزموا بتعهدهم معه ومع الثورة- إلا يتمدرسوا إلا في معاهد عسكرية ومدارس معربة... والشيخ الطاهر آيت علجات شاهد...

- كان الوفاء وتخرج منهم ضباط ا=سامون وإطارات علمية وسياسية وحزبية. انتسب بعد الإستقلال إلى التعليم ليتدرج في كل أطواره، مع مواصلة دراسته الجامعية، ويحصل على ليسانس في التاريخ والجغرافية...

- متزوج وأبٌ لأربعة- بنت وبنين- تقلد مهام مدير الثانوية منذ الثمانينات إلي جانب النشاط الحزبي منذ السبعينات، ارتقى خلاله إلى مستويات عضوية المندوبية والمحافظة ومندوب المؤتمر...

- كان اهتمامه بالمجال الثقافي والتحرير التزاماً، مع جرّ محاولات أدبية أولى (قصص)! لم يكن ذلك همه أمام أولوية المطالعة وإثراء المعارف والمستوى، مع ركوب القلم!... وليس في غير الكثير من الظلامية! ولكن عالم النثر حكر وفعل مقصور، في فداحة قصور ذات اليد!...

- أعلام من زواوة أول نشره وليس أول إنتاج. لأن ذلك هو مذكرات كاملة حول (مسيرة 90 يوماً عام 1957) من القبائل حتى تونس عبر خطوط النار... ومحاولات أخرى المعلم) ومجموعة دراسات وقضايا شائكة ورسالة جامعية حول (زواوة فيما بين و18) وبحوث أخرى (كتلمسان من خلال نفخ الطيب). ومساهمات في الصحاف دراسات وبحوثاً ومقالات تصب كلها في رصيد إثراء التخصص التاريخي. وآراد إزاء التطورات العاصفة بالجزائر منذ 1988... وإنها شهادة وللشهيد رأيه يوم يبعث

طباعة الثورة الإفريقية

الثمن 108 دج